المقتبس

تاريخ الحضارة

مملكة الافرنج

الممالك البربرية

تأسيس الحكم الامبراطوري — لم يشأ ملوك البربر النازلين في الامبراطورية الرومانية ان يقوموا على المعاهد الامبراطورية ليبيدوها بل آثروا ان يخلفوا الاباطرة ويسنوا الشرائع ويصدروا الاحكام ويجبوا الضرائب وعلى الجملة ان يحكموا كما حكم الامبراطور · هكذا كان شأن ملوك البورغوند والويزغوت والوندال في القرن الخامس ولكن ملك الاوستروغوت في ايطاليا تيودوريك قد بلغ في احتذاء ذاك المثال ارقى درجاته في القرن السادس فكان له في فارون قصر بني على مثال قصر الامبراطور مع وزيره وصاحب حاشيته ووكيل خرجه وامناء ماله وكان له ولاة ومحافظون يجبون الضرائب اما القوط فكانوا محاربين ومنهم يتألف الجيش تحت اوامر الدوقات والكونتية منهم · وفي ظل هذا الحكم كان الايطاليون يعيشون بسلام كما كانوا على عهد الامبراطورية فانشأوا يصلحون المجاري والحمامات ودور التمثيل بل وشادوا ايضاً مصانع جيدة مثل قصر فارون ومسلة رافن وبدأ التمثيل يعود الى ما كان عليه وتفتح مدارس البيان ليؤمها الطلاب وعلى ذاك العهد نبغ بويس آخر شعراء اللاتين القدماء (٤٧٠ — ٥٢٤) بيد ان القوط لم يحتملوا زمناً طويلاً لهذا النظام فبعد موت تيودوريك كانت الملكة امالازونت تربي ابنها على يد اساتذة رومانيين فجاء رؤساء الجند يطلبون ان يربوا الطفل مع اترابه على الصيد وحمل السلاح اي على نحو ما تقضي بذلك العادة البربرية ·

حكومة الميروفنجيين — كان ملوك الافرنج في غاليا اكثر توحشاً من تيودوريك

وحاولوا مع ذلك ان يحكموا البلاد على الطريقة الرومانية فمنح امبراطور القسطنطينية لكلوفيس لقب قنصل وبطريق فظهر في مدينة تور لابساً رداء من الأرجوان وعلى رأسه التاج واقتسم اخلافه المملكة بينهم كما يقسم الملك ولكن كان لكل منهم قصره في البلدة التي كان يحكم فيها كلوفيس فيجلس على عرش من ذهب يحف به رجال الدولة بالقابهم الرومانية من قومس (كونت) الى صاحب الخاتم الى الحاجب وكان لبعضهم شعراء في قصورهم مثل الشاعر فنانتيوس فورتوناتوس الذي جاء من ايطاليا ونظم اكراماً لزواج برونهوت ابياتاً مخيلة صنعة اظهر فيها كوبيدون (اله الحب) فرحاً بالزواج والزهرة (الهة الجمال) لتذكر ان برونهوت جميل مثلها وكان الملك شيلبريك نفسه ينظم ابياتاً باللاتينية غاية في السقم والركاكة واخترع حروفاً جديدة مثل œ ، ö ، th ، [illegible] وكان يأمر الكونتية ان يمحوا بالشاف (الحفاف) رقوق كتب التعليم في المدارس العامة ليعيدوا كتابتها بحروفه الجديدة وعني بعلوم الدين ايضاً وبدعي ان العزة الالهية يجب ان يطلق عليها اسم واحد وقد قال لاحد الاساقفة هكذا اريدك ان تعتقد انت واخوانك من علماء الكنيسة . ولما اتاه من ارسلهم الى القسطنطينية بالاقمشة والزين وأيقونات الذهب عرض ما اتوه به في قصره وعرض في الوقت نفسه حوضاً عميقاً من الذهب الذي كان امر بصنعه فكان يريه للناظرين بالاعجاب قائلاً انا الذي استصنعته للزينة ولارفع من قدر أمة الافرنج واسمري كم استصنع اذا عشت من الاعلاق والتحف

مخاذل الميروفنجيين — لم يستطع هؤلاء المقلدون في المدنية الحديثة ان يطول عهدهم فان الافرنج كانوا بقوا من التوحش مبلغاً لم يقبلوا معه بالنظام الملكي فكان المحاربون يحترمون ملوكهم لانهم كانوا من العنصر الميروفنجي ولكن خضوع موقت وكان المقاتلة اكثرهم عرامة يعيشون بالقرب من الملك وفي موكبه ويسميهم الملك رجاله وكثيراً ما يكون هؤلاء اكثر سلطة من الملك . وفي سنة ٥٣٤ بينا كان الملكان شيلدبر وكوتير ذاهبين لتخريب بلاد البورغوند واراد تيري ان يبقى في مملكته جاءه رجاله يقولون له اذا لم تذهب الى بورغونديا مع اخوانك نتخلى عنكم ونلحق بهم . يريدون تيري ان يقودهم لتخريب اوفرنيا . وبعد حين قال احد المقاتلين للملك كونتران : نحن نعلم اين خبئت تلك الفأس الحديدة بدم اخوانك فانا نستطيع بها ان نقطع رأسك . وقد أخذ كونتران الفزع فقال ذات يوم في الكنيسة امام جمهور المؤمنين : اقسم عليكم

ايها الرجال والنساء الحاضرون عهداً ان لاتقتلوني كما قتلتم اخوتي من قبل . وكان هؤلاء المقاتلة الذين لاتدريب لهم يرضون بان يلحقوا بملوكهم في الحروب . لانهم كانوا يرجون في الحروب ان يعودوا وايديهم ملأى بالاسرى والغنائم على انهم كانوا لا يؤدون اداء الضرائب . وحاول بعض الملوك ان ينفذوا القانون الروماني الذي كانوا يرونه حقاً في جباية المال وقد عهد تيودوبرت ملك الافرنج في اوستراز يا الى وزيره بارتينيوس ان ينظم امور الجباية فلما قضى نحبه انتقض الافرنج وذبحوا بارتينيوس في كنيسة تريف (٥٤٧) وبعد ثلاثين سنة امر شيلبريك بتنظيم قوائم الاملاك وان تضرب ضريبة على الاراضي والعبيد وحرثت مملكة شيلبريك في السنين التالية بلاء اصابها من الطوفان والحريق والاوبئة واوشك الملك ان يهلك بعد ان فقد ابنيه وكان القوم يذهبون الى ان الله غضب على شيلبريك للجناية التي ارتكبها بوضع الضرائب على الناس . ولما رأت الملكة فريدجوند اولادها قد مرضوا القت الى النار سجلات ضرائب المدن التي كانت خاصة بها واذ تردد زوجها ان يلقي سجلاته قالت له : وماذا يمنعك ان تحذو حذوي واعمل عملي حتى اذا فقدنا اولادنا لا عرة نخلص على الاقل من العقوبات الابدية (٥٨٠) . وفي سنة ٦١٤ اجتمع الاساقفة ورجال الملك واكرهوا الملك كلوتير ان ينشر امراً بالغاء جميع الضرائب .

الحقوق الرومانية وحقوق البربر — كان ملك الافرنج في القرن السابع ملكاً على جميع جرمانيا ولم يكن سكان هذه المملكة الواسعة أمة واحدة متحدة اجزاؤها بل كان لكل شعب لغته وعاداته ولم يكن في البلاد قانون واحد يخضع له الجميع على السواء وكان لكل انسان قانونه الشخصي خلال زهاء ثلاثة قرون (من القرن السادس الى التاسع) وقد احتفظ قدماء سكان الامبراطورية بالقانون الروماني اما البربر فكان كل واحد منهم يتبع عادة شعبه القديمة . وقد كتبت هذه العادات باللغة اللاتينية في عصور مختلفة فسميت قوانين البربر فنشأ بذلك قانون الافرنج (وهو يمنع النساء واولادهن من كرسي الملك) وقانون ريبوير وقانون الالمان وقانون الفريزون وقانون البافاريين وبالجملة كانت القوانين بقدر عدد الشعوب . وهذه العادات التي جمعت فيها المواد كيفما اتفق تحتوي على بعض الفصول في حقوق التملك والمواريث ولكن معظمها انما فيما يجب عمله في السرقات وحوادث القتل .

وكان البربر يرون ان الخصومات بين الافراد ليست سوى جرائم ليس من شأن الحكومة

بالتدخل بها فاذا وقعت جناية قتل فمن شأن القتيل او أسرته ان ينتقموا من القاتل او من ذوي قرباه فكل شدة تؤدي الى انتقام اضطراري بين الأسرات تشبه الانتقام المألوف الى اليوم في جزيرة الكورس . ولقد كانت الحكومة لابطال هذه الفظائع تكره المجرم ان يدفع غرامة الى آل القتيل ليكفوا عن اخذ الثار . وفي قوانين البربر تحديد دقيق لقيمة هذه الغرامات فلكل امرىء قيمة بحسب حاله فاذا هلك فالقاتل يؤدي قيمته برمتها واذا جرح يدفع القاتل جزءاً من قيمته على نسبة شدة الجرح واذا ضرب رجل رجلاً في رأسه وشجه يدفع ١٠ سولاً من ذهب (السول خمسة فرنكات) واذا ضربه برأسه واخرج منه ثلاث عظام يغرم بثلاثين سولاً واذا ضربه على أم رأسه فظهر مخه يغرم بخمسة واربعين سولا . واذا قطع رجله او يده او جدع انفه يغرم بمئة سول واذا بقيت اليد المقطوعة معلقة يغرم فقط بخمسة واربعين سولاً واذا التوت اليد واستؤصلت يغرم باثنين وستين سولاً واذا قطع له ابهام يده او رجله يغرم بخمسة واربعين سولاً واذا قطع له اصبعه الثانية التي يشد بها القوس يغرم بخمسة وثلاثين سولاً وفي الاصبع الثالثة يغرم بخمسة عشر سولاً وعن الخامسة يغرم بخمسة سولات وعن الخنصر يغرم بخمسة عشر سولاً . وكانوا يحكمون على كل فرد في المحاكم بقانون شعبه قال أسقف في ليون في القرن التاسع ليس من النادر ان يجلس خمسة اشخاص معاً ويكون لكل منهم قانونه الخاص .

مملكة شارلمان

الكارولنجيون — لم يوفق ملوك الافرنج ان يخضعوا رعاياهم البربر اخضاع طاعة وعلى العكس فانهم تقوم على التدريج جميع الاملاك الامبراطورية ليكون مقاتلتهم على مقربة منهم فغدا المقاربون ارباب املاك عظمى وسكنوا في اراضيهم بين عبيدهم وخلعوا ربقة الطاعة فامسى الملك الميروفنجي شخصاً خاملاً منعزلاً . وقد نشأت في شرقي المملكة من انحاء اردين أسرة من كبار ارباب الاملاك لها بعض احترام من قوم ايؤهلها الى خضوع مقاتلة بلادها لامرها ودعا رئيس هذا البيت نفسه بدوق الافرنج ولما كان هؤلاء الافرنج في الشرق اكثر مضاء ونظاماً استباحوا حمى افرنج الغرب وغدا ملكهم مدير القصر لدى ملك الميروفنجيين واصبح السيد الحقيقي في المملكة عامة وبعد نصف قرن اراد احد الدوقات وهو بيبن لوريف ان يلقب نفسه ملكاً فسأل البابا زاخري رأيه فاجاب بان من حصلت له السلطة الملوكية يجب ان يكرم (٧٥٢) وعلى ذلك

نودي ببيبن ملكاً على الافرنج وجاء القديس بونيفاس بنفسه فمسحه هو وامرأته بالزيت المقدس فاصبحت الأسرة الكارولنجية من ثم أسرة ملوكية يحترمها الشعب وتقدسها الكنيسة .

شارلمان — كان شارلمان من بين أقدر ملوك الغرب على الاطلاق فقد اخضع بسيف جنده جميع شعوب المانيا وتقدم الى الشرق نحو الالب والى الغرب نحو الابر وكانت مملكته عبارة عن فرنسا والمانيا وايطاليا الشمالية (1) وتلقى البابوات في ايطاليا على ذلك العهد وعانوا من اللومبارديين ومن ملوك البيزنطيين حتى انهم لم يكونوا في رومية من القوة بحيث يحترمهم الناس على الدوام . وكاد البابا ليون الثالث ذات يوم ان يذبح في احدى الفتن وضرب وديس بالارجل واضطر الى الفرار واستنجد البابوات غير مامرة بملك الافرنج بيبين وابنه شارلمان اذ كانوا يحتاجون الى حام قادر يحميهم فظهر من شارلمان انه كفوء للذب عن حماهم ومنقذ من عداتهم . فكتب البابا ليون الثالث الجديد سنة ٧٩٥ يبعث الى شارلمان بمفاتيح قبر القديس بطرس المقدس وعلم مدينة رومية طالباً اليه ان يبعث باحد يأخذ باسمه بيعة الشعب الروماني فاجاب شارلمان اني راغب ان أعقد معكم محالفة لا تنقض ابرامها يكون سداها الاخلاص ولحمتها الحب حتى انال البركة الرسولية من قداستكم ويكون كرسي الكنيسة الرومانية المقدسة من اخلاصي بمدافع عن الخاص . وجاء شارلمان الى رومية سنة ٨٠٠ فتوجه البابا ونادى به امبراطوراً وعلى رواية اجنهارد صديق شارلمان ان هذا لم يتعمد هذه الحفلة بل ترك البابا يعمل ما يريد قال ولو شعر بما يراد عمله لما دخل الكنيسة ومع هذا رضي بان يلقب بامبراطور الرومانيين واغسطس وماعدا أحوالاً نادرة لم يرض ان يتخذ بدلاً عن اللباس الامبراطوري واحتفظ بلباسه الافرنجي وهو سروال من الكتان مشدود بعصيبات وقميص من الصوف يناط به زنار ثم رداء واسع

وهذا التتويج لم يزد في سلطة شارلمان ولم يكن حدثاً خطيراً وغاية ما في الامر انه اصبح في الغرب بعد ذلك الحين امبراطور يعترف البابا والاساقفة بسلطته وانه حامي الكنيسة . واصبحت هناك سلطتان روحيتان البابا والامبراطور يحكمون الشعب ورجال الدين حكماً مشتركاً .

---

(1) دع عنك الشعوب الصقالبة فيما وراء نهر الالب التي كانت تؤدي له الجزية صاغرة

حكومة الكونتية — لم يحاول شارلمان العمل بقانون الامبراطورية الرومانية بل ترك ارباب الاملاك معفوين من الضرائب اذ رأى من ريع املاكه الخاصة ما يكفي للانفاق على قصره والجيش لا يكلفه شيئاً فليس عليه من ثم الا ان ينشر الامن ويقيم ميزان العدل ويجمع المقاتلة اذا احتيج اليهم. فكان الكونتية هم الذين يتولون هذه الوظائف ولكل مدينة (مثل تور انجر شارتر) كونت واحد وهو في العادة اعظم ارباب الاملاك في ذاك الصقع فكان هذا الكونت يحكم باسم ملك في كورته وحكمه نافذ على من تحت يده فيدعو المحاربين للحملات ويطارد الاشقياء وكان كثيراً عددهم يومئذ ويجمع كل سنة عدة مجالس للحكم في الخلاء يحضرها ارباب الاملاك في تلك الكورة مدججين باسلحتهم وكانت الكونتية في حاجة الى من يراقب حركاتهم اذ كانوا من السطوة والاستقلال في بلادهم حتى ان بعضهم دعوا انفسهم كونتية بنعمة من الله ولذا كانوا كثيراً ما يستعملون سلطانهم لاضطهاد السكان. قال الكابيتوليريون نريد ان لا يكره الكونتية الرجال الاحرار ان يجزوا لهم عشب مروجهم او يحصدوا لهم حصادهم وان لا يأخذوا بالقوة والاحتيال املاك الفقراء.

فكان المرسلون من قبل الملك يطوفون كل سنة البلاد ليراقبوا اعمال الكونتية فيجمعون السكان في كل بلد ويسألونهم عما يشكون منه ثم يحملون الكونت على انصافهم مهددين اياه بغضب الملك عليه ولما سقط اعتبار الملك لم يستطع انفاذ مرسليه غدا كل كونت ملكاً صغيراً وتألفت من كل كونتية مملكة صغرى

رجال الدين في الحكومة — اصبح الاساقفة ورؤساء الاديار منذ ذاك العهد من طبقة القوم وارباب الاملاك الواسعة فيهم. ودخلوا على عهد شارلمان في الحكومة فكانت تعقد حفلة سنوية في قصر الملك للنظر في المسائل فيتشاور الاساقفة ورؤساء الاديار مع الكونتية ورجال الجيش واذ كانت هذه الفئات منورة اكثر من غيرها فهي التي كانت تسن القوانين وتدونها. وكان لكل مدينة كونتها واسقفها فجعل شارلمان الاسقف مساويا للكونت وامرهما ان يحكما معاً قائلاً انا نريد ان يعين الاساقفة الكونتية ويساعد الكونتية الاساقفة ليتمكن كل من الفريقين ان يقوم بعمله حق القيام. فكان على الاسقف ان يحرم اللصوص والعصاة وعلى الكونت ان يكره بالقوة من كانوا يعصون الاسقف ومكافأة للسلطة التي منحها الامبراطور لرجال الدين اصبح هو نفسه زعيم الكنيسة او اسقف الاساقفة فكتب الى البابا: « ان من شأني ان

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

فكان يقضى على الفقراء ان يتجهزوا و يتسلحوا على نفقتهم ومن قل مالهم يأتون رجالة وسلاحهم ترس طويل ولكن كل من كان لهم مال يحاربون فرساناً راكبين ومدججين بشكة حديد . وهذه الشكة غير مستحدثة بل استعملها الفرسان البارتيون وكانت أجسام الفرسان الذين يقاتلون في الجيش الروماني في القرن السادس محمية في تلك الصورة ولما أُطلقت للمحاربين حريتهم ان يتجهزوا كما يشاؤن آثروا من الجهاز ما يقيهم الخطر اكثر من غيره وهكذا لم يبق مشاة في الجيوش وفي أواخر القرن التاسع لم يبق في اوربا الغربية من المقاتلة الا الفرسان اللابسون الحديد وهؤلاء هم فرسان القرون الوسطى .

دستور الحكومة — ان المراسيم الصادرة عن شارلمان هي مجموع ما كتبته حكومته وهي عبارة عن مناشير وأوامر وكتب ولوائح بسيطة ولم يكن معظم هذه المناشير الا ابن ساعته صدرت في غرض خاص ولكن من القوانين ما يجب تطبيقه في المملكة كلها وقد حفظ بعضها ودخل في مصطلحات الشعوب في القرون الوسطى .

الآداب والمدارس — كان شارلمان يحب الآداب حباً جماً كما يحب غير المتعلمين ان يروا احياناً السطور المكتوبة يحبها لانها تتراءى له انها غير منفصلة عن الدين المسيحي واليك ما كتبه سنة ٧٨٧ الى جميع اساقفة مملكته ورؤساء اديارها : «احسنوا استعمال ذكائكم بعد مشاورة المخلصين لنا فقد رأينا ان الأسقفيات والاديار في حكومتنا يجب عليها زيادة على الحياة المنظمة والقيام بالدين المقدس ان تبذل غيرتها في درس الآداب وان تعلمها الى من يقدر على تعلمها بعناية الله فان من يريدون ان يرضوا الخالق بان يعيشوا عيشة راضية لا يتغافلون في سبيل مرضاته بان يتكلموا اطيب الكلام . ولما كان قد كتب الينا في السنين الاخيرة من عدة أديار يعرفوننا ان الاخوان الذين يعيشون فيها يضاعفون صلواتهم لنا فقد لاحظنا في معظم هذه المكتوبات التي فيها شعور الحق كلاماً فجاً لا متانة فيه ولذلك بدأنا نخوف من ان يقل العلم في أسلوب الكتابة وان يفقد الذكاء فيكون اقل مما يجب لتفسير الكتب المقدسة ولهذا نحرضكم ان تتنافسوا في الغيرة على العلم تستطيعوا ان تحسنوا فهم الكتب المقدسة على أيسر وجه وتحيطوا باسرارها الحافلة راسخة » وعليه فقد امر ان يكون في كل كنيسة كاتدرائية او دير مدرسة فيكون في صحبتها صف يقوم رجال الكنيسة على تخريج الاولاد فيه وكثيراً ما كان يحضر شارلمان بنفسه في الدروس فيتعلم الاولاد القراءة والكتابة اللاتينية

وترتيب الصفحات ومن هؤلاء الاولاد كان شارلمان يختار الاساقفة ورؤساء الاديار .

ولقد كان شارلمان يحب الادباء فجمع حوله عصابة يجمعهم مجمع علمي مصغر ولقب الرجال الذين يؤلفون هذا المجمع باسم رجل عظيم من القدماء فاسم الكوين هوراس واسم ادالارد اوغسطينوس واسم انجلبرت هوميروس واسم ثيودولف بندار واسم شارلمان داود . فيقضون الوقت في تأليف اشعار لاتينية وفي القراءة والانشاد وحل المعميات والاحاجي واليك جملة مستخرجة مما كتبه الكوين : ماهي الكتابة ؟ — حافظة التاريخ — ما الكلام ؟ — خيانة الفكر — من يلد الكلام ؟ — اللسان — ماهو اللسان ؟ — المدف الذي يضرب الهواء — ماهو الهواء ؟ — حافظ الحياة — ماهي الحياة ؟ — فرح السعداء وترح البائسين وتوقع الموت » .

والادبيات المأثورة عن هؤلاء الادباء يرجعون بها مع ابو صبيانية تشبه تمارين ابناء المدارس ولم يكن البرابرة من الثقة بانفسهم ما يجرؤون معه على ان يكونوا مبتكرين في القصيد بل كانوا يطمعون كل الطمع في احتذاء مثال القدماء ولذلك لم يوفقوا الى ايجاد ادبيات حقيقية على ان العناية التي بذلها شارلمان ورجال الدين وادباء عصره لم تكن عقيمة لأنه منذ عهد ميروفنجيين لم يكن في عهدهم شيء يشبه الادب وما فيها دونوا كتاباً بل ولا اخباراً وتكتب المكاتبات الرسمية التي لا يستغنى عنها (كالوثائق والهبات والوصايا) باللغة اللاتينية البربرية وهي من سقم الخط بحيث يصعب حلها وبعد شارلمان اصبحت اللغة اللاتينية مضبوطة جداً والكتابة مقروءة لغاية تكاد تشبه الكتب المطبوعة .

خراب مملكة شارلمان — لم يطل عمر مملكة شارلمان لان الافرنج لم يستطيعوا ان يقلعوا عن عادتهم في ان يروا الملك كالاملاك تقسم بعد موت الملك بين اولاده على السواء بيد ان شارلمان نفسه وزع بلاده بين اولاده الثلاثة . فعاش لويز وحده وورث الملك ورزق لويز هذا ثلاثة اولاد ايضاً فاراد مستشاروه من رجال الكنيسة ان يرث الملك بكر اولاده فقط لتبقى مملكة واحدة وعضد الفكرة الافرنج اصغر الاولاد سناً ولكن غلب حزب الوحدة على امره فتعددت الممالك بتعدد الاولاد كل ملك فكانت تقل وتكثر على تلك النسبة . اما لقب الامبراطور فلم تأت تجزئته بل كان يطلق على ملك واحد ويكون على العادة من اضعفهم سلطة مثل ملك ايطاليا وبعد سنة ٩٢٤ لم يعد احد يلقب هذا اللقب . فرأى مؤرخو ذلك العهد والقرن الآخر منهم تلك المملكة

القطع ثلاثة · وقد ألف فلوروس لشارل ليون مرثية بعد عقد عهدة فردون قال فيها: بدلاً من ملك لنا عدة أقيـال وبدلاً من مملكة لنا اجزاء من مملكة · وما من أحد اذ ذاك كان يظن ان تلك القطع تصبح ابداً أمماً وان ذاك الاختلاف يكون ابرك من تلك الوحدة الرومانية

النظام الاقطاعي

المجتمع الاقطاعي

الطبقات الجديدة — اضمحلت في القرن العاشر القوانين الخاصة للامم البربرية المختلفة فقبل سكان جميع اوربا الغربية عادات واحدة وامتاز منذ ذاك الحين بعضهم من الآخر لا بامتهم بل بمقامهم وعملهم ولم يعد يجري ذكر للافرنج (الفرنك) ولا الرومان ولا البورغونديين بل اصبحت الشهرة للفرسان والسادة والشمامسة والفلاحين قال احد الاساقفة في القرن الحادي عشر ان بيت الله مثلث فمن ابنائه من يحارب ومنهم من يصلي وغيرهم يعمل · وبهذا المجتمع الجديد ابتدأ نظام دام الى اواخر القرن الخامس عشر ·

الفرسان — قضي على كل رجل حر منذ عهد شارلمان ان يكون جندياً وقد جاء بعض الاسبانيين ممن طردهم المسلمون يسكنون في اقليم لانكدوك فقال لويز لدبونير وقد منحهم أراضي يستثمرونها انهم كسائر الرجال الاحرار يذهبون الى الجيش · وكل من لا يريد ان يخدم الجندية او لا يستطيع ان يجهز نفسه للحرب يفقد حريته فلم يكن غير رجال السلاح يعدون من اهل المجتمع ومنذ القرن التاسع كان الجندي يحارب راكباً حصانه على الدوام (واصبحت كلمة ميلس اللاتينية ومعناها الجندي مرادفة لكلمة فارس) ويتقلد حساماً من الفولاذ ورمحاً طويلاً من خشب الدردار ويحمل للتوقي من الضرب مجناً طويلاً من الخشب والجلد ويلبس في الوغى قميصاً مغشى بحلق الحديد وفي أواخر القرن الحادي عشر استعيض عن هذا القميص بآخر من زرد الحديد يصل الى الركبة ويستر حتى الذقن والرأس محفوظ بخوذة من الفولاذ والانف بمخرين يتنفس منهما · وهذا الجهاز ثقيل متشعب يقتضي لاستخدامه عادة طويلة وخادم خاص يحمل المجن ويضع الخوذة والدرع وهذا الخادم يسمى حامل المجن باللاتينية (armiger) حامل الاسلحة

وفي القرن الحادي عشر اقتضت الحال بهؤلاء الرجال المسلحين ان يؤلفوا منهم

طبقة وراثية فكان الابناء في أسرة من الفرسان يصيرون فرساناً والبنات الفرسان لا يتزوجن الا من فرسان ولا يحق لاحد ان يقلد فارساً الا اذا كان ابن فارس . وامست الفروسية خاضعة الى منصب وراثة وما يكتنف الفرسان من ذلك العهد ان يكونوا رجالاً احراراً الى ان دعوا انفسهم « الاشراف » ودخل في تلك الطبقة الممتازة الخدمة وحاملو المجان من بعد القرن الثالث عشر فاصبحت كلمتا فارس وحامل المجن مرادفتين لكلمة شريف .

السادة — كل رجل عظيم في هذا المجتمع العسكري بأسره هو رجل حرب حتى الكونتية والدوقات والملوك وبين الفرسان اذا كثير من كبار ارباب الاملاك وقد نالوا من الملك املاكاً عظيمة على سبيل الهبة او ورثوها من آبائهم وتكون هذه الاملاك على الاقل قرية برمتها وفي الاعم الاغلب ان تكون عدة قرى . ويدعى هؤلاء المالكون العظام بحسب البلاد فمنها « البارونات » الرجال ومعنى « سير » او « سنيور » السادة او الاغنياء ويلقب نساؤهم بدام اي سيدة . واذ كان اولئك السادة الاغنياء لهم في حل من ان يأخذوا في خدمتهم فرساناً آخرين ويقدموا الى الحرب في رأس جيش صغير واصطلحوا الى ان يتخذوا علماً يجتمعون تحته وهم من حملته ولذلك سموا العلميين (Bannerets

العطايا والاقطاعات — اعتاد المقاتلة البرابرة منذ عهد شرلمان ان يقدموا للزعيم الذي يقودهم والاتفاق عليهم بالاخلاص له والاستماتة دونه فالمقاتل عندما يقسم هذا اليمين والزعيم يتقبله يكون ارتباطهم طول الحياة فيكون الزعيم يدعو المقاتل أميني او رجلي او مقاتلي او عبدي وهذا يسمي الزعيم سيدي والمقاتل يصحب سيده الى الحرب ويخدمه حتى على المائدة فيكون خادمه ورفيقه في الحرب . والسيد يؤدي اليه لقاء خدمته يعوله ويعطيه اسلحة والبسة وحصاناً واحياناً يعطيه ملكاً .

ولقد اصبحت العادة في الاقسام بين القاطعين للارض المستثمرين لها عادة سيئة في فرنسا أواخر القرن التاسع (وربما نشأ ذلك من كون رجال الحرب غادرين سيئة البلاد الفرنسوية) فالارض تعطى لقاء اجرة اقطاعاً او مستثمرة ثم اصبح من حكم العادة المطلقة ان كل مقاتل يتناول اقطاعاً وانه لا سبيل الى ان يملك المرء اقطاعاً ما لم يكن مقاتلاً لاحد ارباب الاملاك . والامات الاقطاعي يحق لابنه ان يخلفه وكان يشوق الفرسان الا عن حد شؤون املاكهم فيعدون مستقلين عن سادتهم الا قليلاً ثم ان

السادة اقسموا السادات ادنى منهم بان املاكهم تلوها منهم على سبيل الاقطاع فيقسم الدوقات والكونتية تلك الذي كان يحميهم الحكم اقطاعاً . ويكاد يكون جميع السادات سادة ومقاطعين في آن واحد والاراضي الا قليلاً كانت تعتبر اقطاعات ومن هنا نشأ نظامها .

وهذا النظام الذي وضع في القرن العاشر قلما يشبه طرائق عهد شارلمان على ان الاسماء والاعتبارات بقيت بحالها فان المقاطع يقسم ايضاً يميناً يرتبط بها مدى الحياة وهذا ما يدعونه العطية سموها *Hommage* لانها تجعل المقاطع رجل السيد واليك الصورة الشائعة في هذا الباب : ايها السيد لقد اصبحت من رجالك صاحب الاقطاع الفلاني واعدكم ان ارعى لكم حقكم وادفع عنكم كيد كل من يحيا و يموت . ويعد المقاطع لسيده الاخلاص له والمعاونة والمشورة ومعنى الاخلاص ان لا يضر مقاطعته ولا يقاتله ولا يعتدي على امرأته واولاده . ومعنى المعاونة له ان يعاونه سواء كان في المقاتلة دونه او في ايوائه احسن منزل واعطائه دراهم ومعنى المشورة ان يتقرب منه ينصحه و يعينه خصوصاً على الحكم والتصدر . وانتهت هذه الواجبات بان ضعفت وقلت حتى ان العطية لم تكن الا اصطلاحات مألوفة ولما غلب جوفروي دانجو تيبو دي بلوا في القرن الحادي عشر اضطره ان يتنازل له عن كونتية تور على سبيل المقاطعة وان يعطي لاميره عطية

رجال الدين — كان ينظر الى رجال الدين (اعضاء الكهنوت) بانهم خدمة الله وكانوا القادرين بمقام ايضاً . و يعتقدون ان اعطاء مال او اراضي للكنيسة كان من آكد الاسباب لمحو السيئات وانقاذ الروح فكان زعيم الكنيسة القديس والرهبان خدمة القديس يكافئون المعطي بدخولهم في امره مع الله . وقد عثر في عطية خصصت لاحدى الكنائس المخصصة للقديس ايني (١١٤٠) ما نصه : « اعطيت الى ايني الشهير العظيم جزءاً من ارثي في الارض ليكون لي من صلواته وصلوات اتباعه العفو عن خطيئاتي والنجاة الابدية » وكانت صكوك الهبات تبدأ بالعبارات الآتية : « خلاصاً لروحي وارواح اجدادي » واحياناً يزيدون لدفن جسدي ولذلك يهب الواهبون اموالهم ليدفنوا في الكنيسة نفسها . فكانت رجال الدين يأخذون احياناً قرى برمتها وهي عطايا السادات العظام واحياناً قطع ارض او ملكاً وهي عطايا الفرسان والفلاحين فالدير الذي يبدأ بان يأخذ ملكاً واحداً يملك مئات من القرى

بعد والاساقفة ورؤساء الاديار وهم اصحاب تلك الاملاك العظيمة يصبحون سادة عظماء ليس بعد عظمتهم عظمة .

العامة — اصبح جميع ارباب الاملاك خلال حروب القرن التاسع يركبون حتى المضمور الى الجيش وكانوا الا قليلا من حلقة الفرسان . فالارض كانت من ثم ملك الكنائس والسادات والفرسان وكلهم من كبار ارباب الاملاك لا يزرعون بانفسهم وكانوا منقسمين الى محلات كبرى تسمى المدن وفي العادة ان المدينة كانت عبارة عما ندعوه اليوم قرية والمحلة كانت بسعتها كالمديرية . وتكاد تكون جميع القرى الفرنسوية يرد عهدها الى تاريخ هذه المحلات في القرون الوسطى فالفلاحون الذين سكنوا هذه المدن سموا بجملتهم فسموهم العامة فلم يكونوا مالكين للارض بل كانوا يتوفرون على زرعها فقط فمنهم من كان من قدماء الرجال الاحرار الفقراء دخلوا في خدمة ارباب الاملاك كالمستعمرين او المزارعين ويسمون الاحرار والآخرون هم من نسل قدماء عبيد ارباب الاملاك ويدعون باسم العبيد الرومانيين وهؤلاء هم العبيد على ان العبد لم يكن كما كان العبد الروماني بل كان ملحقا في الارض التي يتوفر على زراعتها وله أسرة وبيت وحقل فسيده لم يكن يستطيع ان يجليه عن قريته ويبيعه الى مكان بعيد ولا ان يأخذ امرأته واولاده ولا ان يأخذ منه داره ولا الحقل الذي كان تركه لاجداده وما كان العامي العبد اذاً منحطاً في درجته عن العامي الحر

حالة العامة — كان في الحالة العظمى في القرون الوسطى نوعان من الاراضي . بعضها (وهو القسم الاعظم) تترك الفلاحين يحرثونها ويحتفظون بغلاتها والآخر (وفي العادة ان تكون الاملاك القريبة من دار السيد) يبقى لصاحب الملك ويقضي على الفلاحين ان يحرثوها ويزرعوها ويحصدوا غلاله وفي ايامنا ترى الزراع عندنا يكونون غير مالكين هم عملة بالمياومة او مزارعون وزراع القرون الوسطى هم مزارعون في ارضهم وعملة بالاجرة في اراضي المالك وهم بعضهم مع البعض من الاب الى الابن وصاحب الملك لا يستطيع ان يأخذ ارضهم التي يشغلونها وهم يتوارثونها كما يتوارث المالك ولكنهم لقاء ذلك يحملون عدة اعمال وحقوق اقطاعية

(١) يعطون المالك أجرة الارض وضرائب ومخصصات من الحنطة والعلف والبيض والدجاج ويسمونها العادات لانها مقررة بحكم العادة ويميز الفلاحون العادات الجيدة اي المخصصات الموضوعة من القدم عن العادات السيئة من مخصصات يضعها السيد

بالقوة خلافاً للعادة

(٢) يجب عليهم ان يذهبوا الى ارض السيد يحرثونها ويحصدونها ويسمدونها ويفصلونها ويحفرونها ويقطعون الخشب ويأتون بالتبن وهذه هي السخرة .

(٣) عليهم الا يطحنوا حنطتهم الا في طاحون السيد وان يحملوا الخبز الى فرن السيد ويحملوا العنب الى معصرته ويجب عليهم ان يدفعوا عن هذه الخدم المقررة عليهم ما يقتضي لها من النفقات كما يجب عليهم في السوق ان يستخدموا قياس السيد وموازينه ويدفعوا اجرتها .

(٤) يتقاضون في قضاياهم الى السيد واذا ارتكبوا جنحة يدفعون للسيد غرامة يأخذها لنفسه واذا ارتكبوا جناية يحكم عليهم السيد بالاعدام ويصادر جميع ما يملكون . والعدل اي حق جباية الغرامات هو دخل يتسرب الى جيب السيد ويعد في جملة املاكه . يقول السيد : عدلي في الدائرة الفلانية . فهو يبيعه ويعطيه اقطاعاً ويقسمه بين بنيه وليس من الامور النادرة ان يملك الارض نصف او ربع القضاء في قرية او القضاء في بعض البيوت . وينصب السيد في ارضه مشنقة رمزاً الى حقه واللصوص الذين يشنقهم عليها دليل ناطق بحقه في هذا الشأن . واذا تنازع سيدان في تولي احكام القضاء في قرية (كما يحدث احياناً) يجيء رجال السيد الطالب يرفعون المصلوب ويأتون به الى مشنقة سيدهم واذا ربح القضية السيد الذي صلب المصلوب تعاد اليه جثة مصلوبه والا فيرجع اليه قبض عمله تمثالاً بدله يمثل الجثة او صورتها

فالعامة خاضعون كل الخضوع لسادتهم ولا يحق لهم ان يجتمعوا لفض مصالحهم واذا فعلوا يغرمون بغرامات باهظة فهو قاضيهم الوحيد . قال احد مشرعي القرن الثالث عشر : الملك يا هذا اذا اخذت شيئاً من عبدك زيادة عن الحصص التي في القانون تأخذه وانت على خطر كما يأخذ اللص وليس بينك وبين مالكيك من قاض الا الله[1] . ومع هذا فحال العامة كان اقل شدة مما كان عليه حال الفلاحين العبيد في القديم ولكنهم ابعدوا بعد احراراً حقيقة فالسادات يحتقرونهم لانهم يشتغلون في الارض ولانهم عزل من السلاح واصبحت كلمة عامي في لسانهم مرادفة لكلمة النذل .

---

(١) ندر جداً ان قام الفلاحون بثورة في القرون الوسطى ولا نعلم من ثوراتهم سوى ثورة ٩٩٧ في نورمنديا وثورة الفلاحين المعروفة بالجاكية في القرن الرابع عشر مما يدل على ان الفلاحين كانوا راضين عن حالتهم او انهم لم يكونوا يرجون الخروج من حالتهم

الأخلاق

الحروب — جرت عادة الفرسان ان يتقاتلوا ثم اصبحت قاعدة يحق لكل رجل يحمل السلاح ان يحارب من يشاء الحرب لاهانة لحقته ولاعتداء على عائلته فيبعث الفارس الى خصمه فارساً او بعض الخدم من رجاله دليل على اعلان الحرب . ويدخل النزاع الخصمين وحلفاؤهما في الحرب فوراً او بعد أيام ويغيرون على محلات العدو ويسوقون ماشيته ويحاصرون قصره ويحاولون القبض عليه ليفتدي نفسه منهم . واصبح الحرب من ثم لهواً وتجارة ولعباً ليس فيه خطر كبير على المسلحين من الرجال [illegible] واليك كيف وصف اوردريك فيتال حرب برنيول (١١١٩) بين ملك فرنسا وملك انكلترا اني [illegible] ٩٠٠ فارساً أسرى عند الغالب ولكني علمت انه لم يقتل من التسعمائة فارس الذين حاربوا سوى ثلاثة اشخاص فقط وذلك لانهم كانوا مكتسين بكسوة الحديد من رؤوسهم الى اقدامهم . وكان خوف الله والاخوة في حمل السلاح تدعوهم الى الاقتصاد في الطعان والشفقة في مصرع الاقران فيؤثرون العفو عن [illegible] بأسرهم طمعاً في الفداء . وكثيراً ما يرى الفرسان من الاولى ان يطلبوا من الفلاحين والتجار فدية فتنقلب الحرب الى لصوصية وكان في عامة البلاد سادة على مثال توماس دي مارل الذي كان يتربص بالتجار في الطرق ويسلبهم النقود ويسجنهم في سجون قصره ويعذبهم ليكرههم على ان يفتدوا منه انفسهم . وقد ظل حق الحرب مرعياً في كثير من الولايات الى القرن الخامس عشر فلم يرد الفرسان ان يتخلوا عنه وكانت الحرب شغلهم الشاغل طول حياتهم . واليك كيف قص [illegible] كونت [illegible] «ان خالي صار فارساً في حياة ابيه وكانت حربه الاولى [illegible] احدهما [illegible] كونت بواتو والآخر [illegible] كونت [illegible] واسرهما كليهما وحارب اباه ايضاً(١) ولما قضى ابوه صارت اليه كونتية [illegible] فحارب كونت [illegible] واسره [illegible] واضطره الى ان يتخلى له عن [illegible] ثم حارب عليه [illegible] وحارب كونت [illegible] وكونت بواتو وفيكونت [illegible] وكونت [illegible] وكل [illegible] في [illegible] وهو كونت [illegible] حال عهده . ومن [illegible] هذه الحروب [illegible] من [illegible] حالته لانه [illegible] وعاد [illegible]

---

(١) اضطر جوفروي هذه المرة الى الخضوع لما كره [illegible] عادة حربية قديمة ان يجيء بتقبيل امامه على يديه ورجليه وحمل [illegible] فرس على ظهره

دير القديس نقولا الذي بناه هو وابوه تزهداً ووقفوا عليه الوقوف من الاملاك

الابراج والقصور — كان السادة في عهد تلك الحروب في حاجة الى تحصين بيوتهم وكان التحصين في القرن العاشر مشعثاً جداً وهو عبارة عن حفرة عميقة يحميها من الخارج تحدر عليه عرائش واشجار وفي وسط ذلك السور ينشئون أكمة وبيت السيد بني في ذروتها وما هو الا برج قوي من الخشب وبابه عال جداً عن سطح الارض ولا سبيل الى الوصول اليه الا بالمرور على لوح من الخشب متحرك منحدر من الباب الى آخر الخندق . ولمنع العدو من احراق البرج يغطونه بجلود حيوانات سلخت حديثاً . وهذه الكتلة الملتفة هي البرج او بيت السيد اما سائر الاماكن فتمر في السور في سفح الاكمة (فيها مساكن الخدم واصطبلات واهراء) وكلها من توابع البرج .

واخذ القوم في القرن الحادي عشر (في بلاد الجنوب اولاً) يستعيضون عن العرائش وبرج الخشب بحائط وبرج من الحجر على نحو ما كان للرومان حوالى مدنهم الحصينة وسموا هذه القلاع باسم لاتيني كاستل او قصر (موقع صغير حصين) فقصر القرنين الثاني عشر والثالث عشر عبارة عن سور من الحجر على جوانبه ابراج وهو محاط من كل جانب بخنادق عميقة او هوى ووهاد وقد بنيت عند الاستطاعة في مكان حصين على منحدر عقبة كؤود او شنيف في ارض سهلة على اكمة صناعية فيها انواع الدفاع فاذا شاء العدو يرى اولاً في مقدمة الخندق ما يصده عن المرمى ثم الخندق الذي يحاذيه مكان القصر يصل بينهما معبر نقال معلق بسلاسل وعليه حواجز ثم يصل الى اسفل حوائط السور التي اتخذوا سمكها ويقف المدافعون على الطريق المدور الذي يمتد في الداخل على الحائط فيقذفون السهام والحجارة من الشرفات (زنابيل) ومماشي الخشب المعلقة ليحتوي على مساكن اهل القصر والحاربين والاصطبلات والحظائر والاهراء والكنيسة وبيت السيد وهذا البيت هو برج جسيم (من طراز وجانسي من القرن الحادي عشر علوه اربعون متراً وعمقه ٢٤ وطراز كوسي من القرن الثالث عشر علوه ٦٤ متراً وعمقه ٣١) وهناك القاعة العظمى التي يستقبل فيها السيد ضيوفه (للسادات العظام فقط خارج قصورهم ردهة استقبال وهي القصر) وغرفة منامه وغرف أسرته وخزائنه وسجلاته وفي ذروة ذلك المكان السطح الذي يشرف منه الديدبان على الضواحي وفي الاسفل على طبقتين من الارض الهري او المطبق وهو مظلم رطب لا يخرج منه الا بسلم . فاذا داهم العدو السور يستطيع المحاصرون الذين يتحصنون في القصر ان يدافعوا

عنه رويداً رويداً وطبقة طبقة مادام الفرح الدوار حياً . ويعيش السيد في قصره وباسمه يعرف بعد ميسو بوشاردي ، مونمورنسي او انجراند دي كوسي . والفارس كذلك يبني حصناً ويطلق اسم بيته على اسم أسرته

الفروسية — اسلحة الفرسان ثقيلة الحمل فالواجب ان يتعلم الفارس استعمالها وحملها طويلاً يجب ان يعتاد على حملها دائماً . لا يولد فارساً حتى ولو كان ملكاً فمن القواعد المسلمة ان لا يكون المرء فارساً الا بعد الفرح في ذلك والاحتفال به . فعلى الشاب النبيل ان يتمرن على ركوب الخيل وان يحسن الضرب بالرمح والحسام وان يصد النبل . وما دام يتمرن على ذلك في بيت ابيه يبعث به ابوه الى سيد من اصحابه فيصبح الشاب بعد بضع سنين خادماً يحمل اسلحة معلمه ويقود مراكبه ويعنى بتربيتها ويلبسه شكته ويخدمه على المائدة ويعينه في فراشه . فقد كان القدماء يرون من اعظم العار ان يخدم الانسان انساناً آخر الا في الحرب فاصبحت الخدمة من امارات الشرف فالسائس يخدم الفارس وهذا يخدم سيده . والفرسان والكونتية والدوقات يخدمون الملك في المائدة في الحفلات .

فاذا بلغ السائس أشده يلبسه احد الفرسان في جملة رجاله باحتفال . وكان هذا احتفالاً بسيطاً اولاً . فالفارس يدفع الى المبتدئ سلاح الفارس وهو عبارة عن ترس ودرع ورمح . ثم يصفعه على رقبته بجمع يده . فالفارس الحديث يقفز على السرج ويرمح قليلاً واحياناً يتبارز مع عدو (شخص من خشب) منصوب امام القصر وبهذا يكون الفارس فارساً . وبعد حين حوالي القرن الثالث عشر أضيفت الى هذه الحفلة حفلات دينية في الكنيسة فيقام قداس وصلوات ووعظ يوجه الى الفارس اما العادات المعهودة في قبول الفارس على ما يصفونها في الاقاصيص الحديثة فلم توضع الا في القرن الخامس عشر . ولكل سائس الحق ان يصبح فارساً ولكن الواجب ان يكون عنده الجهاز السلاح والعدة وخيولاً [illegible] وخدماً ولذلك يبقى معظم الشرفاء سواساً طول حياتهم .

اخلاق الفرسان — لا يتميز شرفاء القرون الوسطى عن الفلاحين بعلمهم ولا بتهذيبهم . فمعظمهم لم يكونوا يعرفون القراءة . وما شغلهم الا الشرب والطعام والصيد والحرب وكانوا في العادة متوحشين قساة . واحياناً جفاة غلاظاً فقد قتل ريشاردوس قلب الاسد مثال الفروسية ٢٥٠٠ اسير من العرب وقد فقأ عيون خمسة عشر فارساً أسروا في حرب اثارها على فيليب اوغسطس وقادهم الى ملك فرنسا تاركاً لهم دليلاً منهم في

له عيناً واحدة يبصر بها فأجابه فيليب اوغسطس بل عمله بان فقأ عيون خمسة عشر فارساً من فرسان ريشاردس واقادهم اليهم تحت قيادة امرأة حتى لا يقال احد كما قال مادحه بانه دون ريشاردس قوة وشجاعة ولا ان يذهب الى انه يخافه . وفي سنة ١١١٩ فقأ اوستاش دي بروتل احد كبار السادة النورمنديين وصهر ملك انكلترا عيني احد الاشراف الذين كانوا عنده رهينة فاحتال والد المقلوعة عيناه ان اخذ بنات اوستاش بواسطة جدهم وفقأ عيونهن وجدع انوفهن . وهذا الاغراق في الشدة والقسوة البربرية لم يزل مألوفاً الى القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر . وقد اصبح الفرسان بحياة التشرد على هذا النحو قساة القلوب غلاظ الطباع ولكن منحتهم بعض الفضائل التي تتطلبها الحروب وجعلتهم شجعاناً مفاخرين . والفارس التام الادوات الذي يتغنى الشعراء بمديحه ويحاول كل انسان تقليده هو الشجاع او صاحب الانفة والتدبير . وكانوا اذا سلحوا فارساً يقولون له : كن شجاعاً . والشجاع في عرفهم هو المقدام المفاخر الصادق الذي لا يتلكأ بتة ولا يرجع عن قوله ولا يحتمل ابداً اهانة . فالشجاعة والصدق كانت ودامت الصفات الرئيسة في الشرف . والشجاعة معتبرة لا من حيث الخدم التي تؤديها بل لانهم كانوا يرونها جميلة في ذاتها والفارس قد يبذل نفسه حتى في غير جدوى لئلا يخالج احداً شك بانه اوجس خيفة . والموت خير من ان يدعى الرجل نذلاً كما جاء في قصيدة قديمة . وعلى الفارس ان يكون صادقاً براً بوعده وقوله وبقسمه خاصة اذا كان يمين الاخلاص الذي يقسمه لسيده ويكون كاذباً في ايمانه خائناً في فروسيته ومن العادة في رشاوة ان من لطم سيده بيده او طعنه بلسانه او استباح قصره واستصفاه هو من اعظم من ارتكبوا اعظم الخيانات . يفهم ذلك من روح عدة قصائد نظمت في القرون الوسطى . فقد اضطر رنودي مونتوبان ان يعلن الحرب على سيده شارلمان فحاذر ان يؤذيه اقل ايذاء ولما اسره وقع على رجليه طالباً الصفح عنه . وقد نال بوزه تابع راول دي كامبري ما جلب عليه العار من سيده فسأله سائر الفرسان كيف يستطيع ان يظل على خدمته فأجاب ان راولاً هو سيدي هو اكثر خيانة من جودا ولكنه سيدي فقالوا له اجمعون انك محق يا برنيه

الشرف — يفاخر الفارس انه شريف وجندي ويعرف لنفسه فضلها فلا يشك فيه احد بل ولا يلاحظ ذلك . وليس على احد ان يضربه او يهينه او يماكسه لان ذلك مما يؤدي الى انه متهم بامانته وهو ايضاً لا يحتمل ضربة ولا اهانة ولا تكذيباً ويؤ

شرفه في نظر الفرسان وفي نظر نفسه اذا لم ينتقم للاهانة ممن رماه بالعار والشنار . وهذا الشعور هو الشرف وهو الهمة كبرياء او اعجاب شديد فهو يقول نفسه من قريبه ويأمر بالحاجة بأنه يريد ان يشركه غيره بهذا الفكر . ولم يكن لليونان ولا للرومان لفظ للتعبير عن هذه الصفة بل انها نشأت في القرون الوسطى وانتقلت الى ايامنا (دليل الشرف العتيق . ونقطة الشرف والرغبة في بقاء الشرف مثلاً) يصح قاعدة سلوك الاشراف ومقياساً لمكانتهم

حكومة الاقطاعات

استقلال ارباب الاملاك — ضعفت سلطة الملك منذ القرن التاسع فضعفت طاعة رعيته واعتاد السادات من النبلاء والخاصة ان يكونوا مستقلين في بيوتهم . فكان صاحب ملك (فارساً كان او رئيس دير) راعياً كالملك المستقل في املاكه يحرسه . ويخدمه هم رعاياه وله الحق ان يقودهم ويغرمهم ويحاسبهم ويقاضيهم . وله شارة خاصة وله عتاد يلم بأوامره الى السكان ويحارب جيرانه وكثيراً ما يعلن الحرب . قال احد فقهاء القرن الثالث عشر ان كل بارون هو مليك في ارضه . وكل محل هو مملكة صغيرة بحيث ان رجال ذلك المحل يدعون اهل القرية المجاورة غرباء عنهم . وكان في البلاد عدة الوف من هؤلاء الاقيال وكثيرون هم فرسان فقط لا يملكون الا قرية واحدة اما غيرهم من الاغنياء فيلقبون بلقب سيد و بارون ثم ان في كل ولاية رجلاً يلقب بلقب كونت او الدوق ويكون اعظم ارباب الاملاك في الولاية ولم يكن اجداده على عهد شارلمان سوى حكام في خدمة الملك بيد ان الملك في القرن العاشر لم يكن له قوة ليستعيد منهم السلطة لانهم اصبحوا كونتية ودوقات [illegible] حد واصبحت دوقياتهم وكونتياتهم الفخمة ملكاً وهي كسائر الاملاك يمكن بيعها ووقفها وتقسيمها ايضاً (كما وقع لدوقية [illegible] الى [illegible] كما وقع لكونتية [illegible] شامبانيا) واذا لم يعقب صاحبها ولداً ذكراً تنتقل الاملاك الى ابنته ويكون لها [illegible] (وهكذا اعطيها زوجها) ويقال عندها ان الملك صار لامرأة . اذ ذاك يكون لكل مالك في مملكته سلطة ملك وكل ملك يعمل عمله كملك . وقد بات من المحال ان يميزوا بين المالك والملك ولذلك كانت جميع سياسة الملوك في القرون الوسطى سياسة بيوت واسرات وكل ملك كالفلاح لعهدنا يحاول ان يوسع ملكه [illegible] يحول [illegible]

الملك — كان الملك اعلى سادات فرنسا كعباً وارفعهم منزلة وله لقب سام ويخضع له

الجميع ولكنه لم يكن اقدرهم بل كان لدوق نورمنديا وكونت تولوز املاك اوسع من املاكه ولم يكن بين الاخلاص الذي يرتبط به اولئك السادة العظام مع الملك الا عبارة عن حفلة ادبية لا تمنعهم من ان يطلقوا الحرب عليه حتى انهم كانوا اذا لم يريدوا نقض العهد علناً فلا يتضايقون منه . وقد وضع روبرت كونت فلاندر سنة ١١٠١ وفي عهدة عقدها مع ملك انكلترا الشرط الآتي: اذا هاجم لويس ملك فرنسا الملك هنري في نورمنديا يذهب روبرت في عشرة من الفرسان فقط الى جيش لويس و يبقى الخمسمائة فارس الآخرون في خدمة الملك هنري واذا زحف الملك لويس على انكلترا وأخذ معه الكونت يحتم على الكونت ان يأخذ معه ايضاً اقل ما يمكن من الرجال . ولقد بلغ التعجب مبلغه في بلاط لويس السابع عندما جاء أسقف ماند الى باريز يعترف بسلطة ملك فرنسا وقيل ان هذا البلد لم يخضع قط الا لاسقفه ولم يكن الملك كسائر السادة مطاعاً الا في محله واقتضى له اذا اراد ان يطاع في مملكة فرنسا ان يوسع املاكه على مر القرون و يدخل ولاياتها في ملكه الواحدة بعد الاخرى .

العادة — لم يكن لاهل القرون الوسطى قوانين محررة بل كانوا يعملون في كل مسألة بما سلف لاجدادهم منها و يسمون ذلك اتباع العادة ولم تكن العادة مكتوبة بل كانت تحفظ تقليداً حتى في القرن الثالث عشر ايضاً اذا حدث حادث مشتبه به يجمع اقدم السكان و يسألون عما رأوه يعمل في مثل هذا الشأن وهكذا كان لكل قرية عادتها حدثت مع الزمن ولم تكن تشبه عادة القرية المجاورة قال بومانوار لا يوجد في هذه المملكة سيدان ما كان يعملان بعادة واحدة ومع هذا فان الصقع الواحد الذي تتشابه عاداته بعض الشيء يتألف منها عادة واحدة . والفرق الكبير كان بين بلاد الشمال حيث العادة كانت منبعثة من العادات الجرمانية و بين بلاد الجنوب التي احتفظت بعادات الحقوق الرومانية . و بعد ذلك كان اهل القرون الوسطى يحبون العادة و يحترمونها لانها كانت القاعدة الوحيدة التي يرجعون اليها والسد الوحيد في وجه الظلم وعندهم ان العادة يجب بقاؤها ومن لا يحفظها يوشك ان يفتح سبيل الخصام الكثير بين الناس .

السلم والعدل — كان ارباب الاملاك في القرون الوسطى يوطدون دعائم السلام بين عبيد محلتهم و يحكمون بينهم (احكاماً تختلف جوراً وعدلاً) ولكن لم يوطد احد دعائم السلام بين ارباب الاملاك وكل منهم يحكم نفسه بنفسه وذلك باشهار

الحرب على جاره ويقتضي تقرير السلام ان يعدل الفرسان عن عادتهم في التقاضي الى السلاح وان يقبلوا بعض قضاياهم في محكمة وان يستعاض عن الحروب بقضايا ولذا كان لفظا سلم وعدل من الالفاظ المترادفة في القرون الوسطى ولقد كان للملك في بعض البلاد (مثل نورمنديا وانكلترا ونابل واسبانيا) من الاقتدار ما يستطيع معه ان يكره الفرسان ان يحفظوا السلم للملك او الدوق وحاول الاساقفة في البلاد الاخرى ان يقنعوا الفرسان بتوطيد سلام الله ولكنهم لم يفلحوا ان يؤسسوا محكمة منتظمة ·

فاذا اختصم اثنان من ارباب الاملاك فقد يقرر جيرانهما ان يفضوا الخلاف بينهما بواسطة محكمين او ان يكون سيدهما من السلطة بحيث يكرههما على المثول امامه وفي تلك الحال ينظر في الخلاف ضباط قصره وبعض الفرسان المجاورين وهذا ما يسمى محكمة السيد ولكن هذا الفصل متقطع وغير نافذ احيانا لان من يخسر في الحكم لا يمنعه الا ان يعمد الى القتال · فقد كان هوغ في القرن الحادي عشر احد التابعين لاسقفية كامبري يستوقف تجار المدن ويقطع عليهم ويطلب الفداء منهم ويخرب قرى الاسقف · فطلبه سيده هذا ثلاث مرات متتابعة ثم مثل بين يديه ولكنه ابى ان يعطي اقل تعويض فحكم فرسان محكمة الأسقف عليه بانه يؤخذ منه اقطاعه فلم يهتم هوغ بالامر وعاد الى منزله وبعد مدة وقف الأسقف بالذات ·

المبارزة — كانت قضية من القضايا التي ينظر فيها الفرسان في محاكمهم اشبه بحرب فمتى اجتمع الخصمان يتضارب احدهما وصاحبه ومن فاز ربح القضية وكان يذهب القوم اذ ذاك الى ان الله كتب له الغلبة لانه محق في امره وهذا ما يسمونه بالقتال او المبارزة · والقضاة الذين تتألف منهم المحكمة يعمدون الى ان يحلفوا الخصمين بانهما يزعمان بان مع كل منهما الحق وان يخططوا الارض التي تقع فيها المبارزة وان يراقبوهما · فالمحكمة تأمر بالمبارزة لا عند حدوث جناية او مخالفة بل تبت في امر محلة لمن تكون وفي اي قاعدة في العدل يجب اتباعها · وقد تبارز خصمان في القرن الثالث عشر بامر الفونس ملك قشتالة ليحكموا فيما اذا كان يدخل القانون الروماني الى مملكته · وكان الفرسان يعتبرون المبارزة اسهل ذريعة واشرفها للبت في قضية لم يكن اذ ذاك مناقشة تجري ولا حجة يدلى بها فالجواب يجاب به الخصم الا القتال ·

ولم تؤلف المبارزة فقط في محاكم الفرسان بل في محاكم المدن بين اهل الطبقة الوسطى واحيانا بين الفلاحين في القرية فيتسلح المتقاتلون بالترس والعصا واذا كان احد الخصمين ليس

من القوة بحيث يستطيع البراز بعهد الى آخر ينوب عنه فكان القتال يجري في البراز حتى في محكمة الأسقف ولقد وقع شك في هذه العادة فسئل البابا اوجين الثالث رأيه فاجاب عليكم باستعمال عادتكم .

ولقد أصبحت عادة البراز أصلاً تعذر معه استئصالها ولا يزال البراز في الحياة كما كان ينظر اليه بعد الواسطة الوحيدة في قضايا استرداد الشرف المثلوم فهو كالمروءة بقية مما ابقته القرون الوسطى من عاداتها ولم يبق الا فضل الاباء والمروءة .

حكم الله — لا يستطيع النساء ان يبارزن وكثيراً ما يمتنع منه الفلاحون وفي تلك الحال يعمد القوم الى استعمال ضرب آخر من ضروب احكام الله . فبعد قداس او صلوات تقام غايتها التوسل الى الله ان يظهر الحق كان يقضى على الرجل او المرأة بان يحمل حديدة محماة بضع خطوات او ان يغمس يده في اجانة ماء يغلي فاذا نجت يده بعد بضعة ايام من الجرح فحكم الله يكون له . واحياناً كانوا يلقونه في مستنقع الماء فاذا غرق فقد ربح واذا عام فقد خسر وقبل ان يلقوه في الماء يستحلف الكاهن الماء بهذا الكلام : ايها الماء انشدك الله القادر الذي خلقك وامرك بان تقوم بحاجات الانسان الا تقبل هذا الرجل اذا كان مجرماً بل احمليه يطوف على وجهك . واحياناً يكتفون بان يلقم المشكو عليه لقمة من الخبز والجبن بعد ان يكونوا استحلفوهما بان تبقيا في حلق المشتكى عليه اذا كان كاذباً . وهذه المحن يسمونها الحكم . وقد كتبت الكنيسة كتاباً في الطقوس لكل واحدة منها ولما اجتمع المجمع العام في لاتران سنة ١٢١٥ امر بالغاء هذه الكتب

الكنيسة في القرون الوسطى

تنظيم الكنيسة

الأسقفيات — احتفظت عامة المدن في المملكة الرومانية القديمة بأسقفياتها وابرشياتها . وكلما كانت البلاد في المانيا تدين بالنصرانية كان الملوك ينشئون كراسي اساقفة . ولما كانت الكنيسة تحظر ان تقيم اسقفاً في غير المدينة كان القوم يؤسسون في آن واحد مدينة وابرشية . وكانت الابرشيات باجمعها قديمها وحديثها غنية جداً لها املاك واسعة وقد تملك احياناً ولاية برأسها وقد منح الملوك الاساقفة براءات يحكمون بموجبها بلادهم بانفسهم . وجاء في صك الاعفاء انه ليس لموظف عام ان يدخل الى ارض هذه الكنيسة لاجباية خراج ولا لحكم ولا للقبض على العبيد والاحرار الذين يسكنون

فيها . وبذلك أصبح الأسقف ملكاً حقيقياً فكان أساقفة كولونيا وماينس وتريف على الخصوص أكبر الأمراء في ألمانيا .

مجامع الرهبان — خضع قسوس الكاتدرائية (يسمون الكاتدرائية كل كنيسة في حاضرة أبرشية) أولاً للأسقف وأخذوا منذ القرن التاسع يعيشون عيشة مشتركة بحسب القاعدة التي يجري عليها الرهبان ومن هنا أتى الاسم الذي أطلق عليهم وهو كاهن قانوني Chanoine أي الخاضع للقاعدة وجماعتهم أي مجامع الكهنة أو الرهبان . وكان الكهنة القانونيون يعيشون بادئ بدء من دخل مخصص لهم من العطاء الذي وهبه القوم للمجمع ثم اقتسموا تلك المخصصات ملكاً وكثيراً ما يكون سناء فكان كل راهب (أي ...) يتمتع بدخل مخصص يتيسر له به أن يعيش عيشة سيد ، ومن عاش فلا عيشة الكاهن القانوني يعيش في منزله وبذا أصبحت المجامع من الأساقفة أصبح القانونيون عليها أبهة النبلاء ونعماً .

الأديار — عاش الرهبان في القرون الوسطى الأولى كما عاش قبلاً الرهبان وكانوا محافظين على السنة التي سنها القديس بنوا . وكان تحت كل رهبنة تؤلف ديراً مستقلاً رأسه رئيسه ، والدير عبارة عن مساكن الرهبان ، ومنازل الضيوف وكنيسة ودار الضيافة (ينزلون فيها الغرباء) ومعامل ومطابخ وبيوت الخدم والزراعة فكان الدير في الأول كقرية من قرى الكنيسة يحيطه سور (مثل دير ...) ومكتب للإيواء . وللدير أملاك واسعة منتشرة أحياناً في عدة ولايات فيبعث رئيسه إلى الأملاك القاصية بضعة رهبان يسكنون تحت رئيس عليهم وهذه الأديار الصغيرة التابعة للكبرى تسمى القاعات . وعرف الحكام رئيس الدير بجمع الرهبان المجتمعين في مجمعهم ، ويكون تحت يده في الأديار الكبيرة رهبان لكل منهم وظيفة مثل مدير الدير ونائبه وقيم الثياب وقيم الطعام وقيم الخزانة وقيم الكتب ورئيس المنشدين ومدير المدرسة . يعيش الرهبان بعضهم مع الآخر وعليهم أن يلتزموا السكوت إلا في بعض الساعات ويجتمعون قبل طلوع الفجر ليرتلوا صلاة السحر عند الإشراق ثم يجلسون بالأرض من الأول ثم يجري وقت القداس والصلوات كالقداس الأعظم والأول وصلاة النوم . ولما كانت سنة القديس بنوا تقضي بأن يشتغل كل راهب كانوا يحرثون الأرض أو ملاحظة خدمهم أو صنع أمتعة لزينة الكنيسة أو نسخ مخطوطات . ولقد وصف كثير من الرهبان عيشتهم في أديارهم ولكن الصورة تختلف باختلاف الذي

الدير وفقره وجدته وقدمه وحسن ادارته وسوئها

الخورنيات — لم تكن كنائس ولا قسيسون في غير المدن ايام الرومان ولما غدت البلاد مسيحية كلها أخذ كبار ارباب الاملاك والسادة ورؤساء الاديار والاساقفة يبنون بيعاً ومعابد في علاقاتهم فيعطي المؤسس لكنيسة قطعة ارض كافية تقوم بنفقات الكنيسة واطعام راهب ويصدق الاسقف على هذا التأسيس وعندئذ يخدم كاهن تلك الكنيسة (يكون لمؤسسها واعقابه الحق في تعيينه) ارواح اهل القرية ويجب على السكان ان يأتوا الى كنيسته ويطيعوه والارض التي يدير شؤونها راهب تؤلف منها خورنية او ادارة ولما تم هذا العمل (وكان ذلك نحو القرن العاشر في فرنسا) انقسمت جميع البلاد المسيحية الى خورنيات كما هي الى اليوم واصبح لكل قرية كنيسة او تبعت كنيسة القرية المجاورة لها . ودخل الدين الى المزارع الواسعة واستطاع الفلاحون ان يتعبدوا بدون ان يأتوا المدن وغدوا يقيمون صلواتهم في كنائس قراهم حيث يجتمعون وصارت ابراج اجراسهم وقبابها ترى من بعيد وتدعو الاجراس المؤمنين الى الصلاة ولهم اجران معمودية لتعميد اولادهم وقبور ليدفنوا فيها موتاهم ويعظهم كاهنهم ويعلمهم الدين ولهم قديسهم او حامي كنيستهم وعيده عيد القرية وكثيراً ما كانت تسمى القرية باسمه .

الحرم — كان رجال الدين في القرون الوسطى اغنى من العامة واكثر تهذيباً وتعلماً منهم ولهم مع هذه قوة لا تغالب وهو انهم كانوا يناولون القربان الذي لا يستغني احد عن تناوله ولم يكن على ذاك العهد ملاحدة واذا حدث احياناً لاحد العامة ان تمرد على الكنيسة او انه أساء الى راهب في حالة غضب فانهم كلهم يعتقدون اعتقاداً راسخاً في اليوم الآخر و يتوبون و ينيبون لينالوا الغفران وكان رجال الدين يستعملون الاسلحة الروحية كما كانوا يدعونها في تأديب الجناة والعصاة فكان المجرم محروماً أي مطروداً من تناول القربان مع جمهور المؤمنين فكان الاسقف يقول اننا بموجب السلطة الالهية التي منحها القديس بطرس الى الاساقفة ننبذ فلاناً من حجر امه الكنيسة المقدسة فليلعن في المدينة وفي الحقول وفي بيته وعلى كل مسيحي ان لا يكلمه ولا يواكله . وعلى اي راهب ان لا يقيم له القداس ولا يناوله القربان وان يدفن كما يدفن الحمار كما ان هذه المشاعل التي القيناها من أيدينا ستنطفئ وان ضوء حياته سيخمد ان لم يتب ويقدم ترضية .

وقد بدئ في القرن الحادي عشر باستعمال السلاح الكنائسي ضد السادة الذين كانوا يُنذرون بالحرم فكان رجال الدين يحرمون من تناول القربان السيد وحاشيته فلا يعقد زواج في كل أرضه ولا يدفن ميت ولا يقرع جرس وتقفل الكنائس ما دام سيدهم وكذلك يقضى عليهم ان يصوموا ويرسلوا شعورهم علامة الحداد. وفي هذه الصورة كان رجال الدين يكرهون السادة ان يحترموا القوانين الدينية ويحظرون عليهم الاستيلاء على أرزاق الكنيسة.

اصلاح الكنيسة

اختلاط السلطات — كانت الهوة ضيقة جداً في القرن الحادي عشر بين السلطة الروحية على الأرواح والسلطة الزمنية على الأجساد فلم يكن الأساقفة ورؤساء الأديار رؤساء دينيين فقط بل كانت لهم حصة كبيرة من السلطة السياسية فكانوا بما يملكون من الأملاك يعدون في السادة العظماء أي حكاماً على الأعيان والتابعين من الفرسان ثم ان الملوك والأمراء وكثيرين من رجال السيف كانوا في حاجة الى رجال الكنيسة في شؤون الحكومة الإدارية فالأساقفة هم الذين كانوا يحررون لهم وكانوا يجلسون في قصورهم يكتبون أوامرهم ويقيمون المحاكم ويحكمون. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل قد دعي الأساقفة الى العمل فعلياً في ادارة الولايات وكان لكثير من الأساقفة في ألمانيا سلطة كسلطة الكونت. وهم مع حصولهم على سلطة سيد من العامة يحصلون ما يختص به السيد. ثم يعدون ذلك كالكونتية فتعين عليهم ان يقدموا لذلك الكونتية ولاءهم ويخدموا في الجيش وكان جيش الملك في ألمانيا مؤلفاً من فرسان أتى بهم أساقفة ورؤساء أديار ولكن الملك كان يحظر عليهم أحياناً ان يجيبوا الدعوة الى حمل السلاح بأنفسهم فقد كتب فيليب الأول الى رئيس دير سان ميدار في سواسون ان العادة القديمة تقضي على فرسان الدير ان يحضروا بقيادة رئيس الدير الا اذا ترك بالحملات الحربية وان على رئيس الدير ان يتبع هذه العادة او يستقيل. فاستقال رئيس الدير وجاء ملتحقاً الى الجيش.

الفكر السائد او دائه — كان الأساقفة ورؤساء الأديار في القرن العاشر من ابناء السادات في العادة والكهنة والقسيسون من ابناء الفلاحين دخلوا في الرهبنة دون ميل منهم بل بمجرد طاعة لعائلاتهم او الاستمتاع بنعم الكنيسة. فكانوا أقرب الى كسائر السادة بأخلاق العامة فيصرفون أوقاتهم في الصيد والشرب واللعب والقتال

ورؤساء الاديار يبددون أموال الدير ليعولوا عصابة من المتشردين وكثير منهم يتزوجون ويقفون كنيستهم على اولادهم . وقد شوهد في نورمانديا كهنة يتنازلون عن دورهم بائنة لبناتهم وكثير منهم كانوا أميين يحرفون كلام القداس بجهلهم وابتاع معظمهم مناصبهم من اناس من العامة وكانوا يبيعونها الى غيرهم من رجال الكنيسة . وتسمى هذه التجارة ببيع المقدسات الروحية (سيمونية) واصبح الاكليريكيون الخاصة جفاة غلاظاً جهلاء طامعين كالعامة وكان يقال ان الكنيسة قد سرى اليها الفكر السائد في ذاك القرن .

رهبنات جديدة — اوجس رجال الكنيسة المخلصون لآدابها خيفة من هذه الفضائح فحملوا ارباب الغيرة منهم على تأسيس رهبانيات جديدة فجاء بعضهم من هذا العالم الفاسد وهربوا الى البادية مثل القديس برونو الذي جاء من شمالي فرنسا وتوغل في جبال دوفينه المتوحشة في بضعة من رفاقه وأسس رهبنة الفلاحين (شارتره او الكرتوسيين) وأسس احد عظماء الطليان القديس رومولد في جبال طوسكانيا رهبنة الكاملدوليين . واراد آخرون استئصال هذه الفضائح مباشرة بادخال رجال الدين تحت قاعدة فبدأوا يشددون في نظام احد الاديار ليكون نموذجاً في اصلاح غيره . واهم مراكز الاصلاح كان دير كلوني اقدم الاديار وقد جرى اصلاحه في القرن الحادي عشر ودير سيتو الذي أسس سنة ١٠٩٤ وكلاهما في اقليم بورغونيا ودير كليرفو المؤسس سنة ١١١٥ او برمونتره المؤسس سنة ١١٢٠ .

ولم يقصدوا بذلك ان يستعيضوا عن القاعدة القديمة التي وضعها القديس بنوا بل على العكس ان يضعوها موضع العمل بانفاذ نظام العمل على الرهبان والطاعة والفاقة مما بطل في الاديار بما تسرب اليها من افكار ذاك القرن . فمنع مؤسس دير كليرفو القديس برنارد رهبانه من لبس الفراء والدثر والقبعات وقضى بحظر جميع انواع الزينة حتى في الكنائس ولم يسمح بغير صليب من الخشب المنقوش وشمعدان كبير مشعب من الحديد ومباخر من النحاس . وبقي الرهبان كلهم بعد الاصلاح من البندكتيين ونظروا لتوقيف الخلل الذي دخل على ايسر وجه الى دير مستقل ان ترجع الدير المصلح ادارة الاديار المؤسسة او المصلحة على يده . وهكذا اصبحت اديار كلوني وسيتو وبرمونتره زعيمة رهبنة ولم تعد اديار رهبنتها اديارا كبرى بل بيعاً ومعابد تخضع لرئيس واحد وتبعث بمفوضين من قبلها يمثلونها في المجتمعات العامة في الرهبنة . فجمعت الرهبات

في اسرع ما يمكن فكان لكلوني في القرن الثاني عشر زهاء اربعمائة راهب وينظر في شؤون الفي دير وكان لسيتو تحت طاعتها نحو ١٨٠٠ دير منتشرة في جميع اوربا وعند ذلك بدأت المنافسة بين رهبان كلوني السود ورهبان سيتو البيض . وكان هؤلاء الرهبان المصلحون هم الذين اضطروا بقية رجال الدين ان يصلحوا اخلاقهم وهم الذين عضدوا البابا احسن عضد وحملوا المسيحيين كافة عامتهم وخاصتهم ان يحنوا رؤوسهم لسلطته . فقد كان غريغوريوس السابع البابا العظيم المصلح الحازم من رهبان كلوني والقديس برنارد اللاهوتي العظيم في القرن الثاني عشر من رهبان سيتو .

كان من العادة القديمة في الكنيسة اذا اقر احد المؤمنين بخطيئة ارتكبها ان يقضي عليه القسيس بالتوبة قبل ان يغفر له ويدعه يدخل الكنيسة بين الناس وتجري هذه التوبة علنية اذا كانت الخطيئة ارتكبت كذلك . وكتبت في القرن الثامن كتب توبة فيها العقوبة المقدرة لكل خطأ . مضت قرون وهذه التوبات مثال القسوة واذلال النفس ففي بعض التوبات التي تطول سبع سنين كان يتحتم على التائب في السنة الاولى ان يقف حافياً امام باب المدينة يركع امام الداخلين ويتوسل اليهم ان يصلوا له . والتوبات عبارة عن الصيام وترديد صلوات وضرب البدن بالعصي ثم انتظمت هذه الطريقة فرأى رجال الكنيسة ان ثلاثة آلاف ضربة بالعصا تعادل سنة في التوبة . وقد اشتهر احد نساك الطليان في القرن الحادي عشر واسمه دومينيك ولقب بالدارع بانه يتمكن في خمسة عشر يوماً ان يقوم بمئة سنة من التوبة واقروا ايضاً على ابتياع التوبة بالاعمال الصالحة مثل الحج ومنح العطايا الى الكنائس وكانوا يقولون ان للقديسين من الفضائل اكثر مما يجب لخلاصهم وهذه الفضائل الزائدة قد تألف منها كنز المغفرات التي بها تشترى خطيئات الخاطئين . ولدى الكنيسة هذا الكنز في الغفران تنفق منه على المؤمنين وبوسعها ان تفضل منه على ارواح الموتى التي يراد تطهيرها وتطلب لقاء ذلك بعض المال . فالخاطئ لا يشتري الغفران (كما قيل ذلك خطأ) بل يبتاع التوبة فقط وبعبارة اخرى ان الكنيسة تعطيها له . هذه هي نظرية الغفرانات . فقد قال داميانوس انا انما نأخذ من اراضي التائبين عنهم كمية من التوبة بحسب ما يعطوننا . وعلى هذا كانت التوبة نوعين احدهما وهي السهلة (ما يتبدل بالغفران من البابا والحج) وهذا يكفي الارواح الفاترة واوقات السكون والآخر وهو بربري (ضرب العصي) تطمئن اليه الارواح المتحمسة

وقد كان الغيورون من المسيحيين مثل القديس لويس والقديسة اليزابة يلبسون قميصاً من الشعر ويضربون بعضاً بيد من يعترفون له . وفي اوقات الفزع الديني خلال الاوبئة والحروب تألف عصابات من المضروبين بالعصي يجتازون البلاد واكتافهم عريانة وهم يضربون انفسهم حتى تسيل دماؤهم

انفصال الكنيسة الرومية — مضى دهر طويل لم يؤلف المسيحيون الروم في بلاد الشرق سوى كنيسة واحدة مع مسيحيي الرومان في الغرب فكان لهم عدة بطارقة في الاستانة والاسكندرية والقدس وانطاكية ويعترفون ايضاً بتقدم اسقف رومية ولكن بعد ان فتح العرب مصر وسورية لم يبق في الامبراطورية سوى بطريرك واحد وهو بطريرك القسطنطينية الذي أخذ ينافس البابا . ولما قطع البابا العلائق مع الامبراطور في القرن الثامن بشأن عبادة الصور بدأ المسيحيون الروم ان لا ينظروا الى مسيحيي الغرب اخوانهم وكان بين الفريقين من اهل العالم المسيحي بعض فروق خفيفة في امور التعبد والمعتقد فالروم يعتقدون ان روح القدس لم ينبثق الا من الآب والغربيون يعتقدون انه ينبثق من الآب والابن معاً وان الابن من مادة الآب نفسها . والروم يستعملون الخبز في المناولة والغربيون خبزاً بدون خمير والروم يسمحون بزواج القسوس والغربيون يحظرونه .

وظهرت تلك العداوة الخفية بين الكنيستين جهاراً في القرن التاسع فعزل الامبراطور اغناس بطريرك القسطنطينية واقام عوضاً عنه فوتيوس احد قدماء الساسة والقواد وهو اكثر الناس علماً في زمنه ولم يكن راهباً بل اجتاز درجات الكهنوت كلها في بضعة ايام فتحزب البابا نقولا للبطريرك المقال وحرم فوتيوس واشياعه فجمع فوتيوس في الاستانة مجمعاً حكم على معتقدات اللاتين الخاصة بانها الحاد وحرم نقولا (٨٦٧) فاغتنم البابا فرصة تبديل الامبراطور ليجمع في القسطنطينية مجمعاً مسكونياً (٨٦٩) قضى بعزل فوتيوس وفسخ اعماله . وفي سنة ٨٧٩ فسخ مجمع جديد اوامر مجمع سنة ٨٦٩ واعلن بان البابا ليس مسلطاً على الكنيسة الا في الغرب فاجاب على ذلك بحرم فوتيوس الذي انقطع الى احد الاديار وبدا بذلك ان التقاطع بين الكنيسة اصبح مبرماً ولكن الباباوات في اواخر القرن التاسع اصبحوا في ايدي بارونات رومية فامسوا من الضعف بحيث لا يستطيعون المقاومة في هذا الباب ولما شعر البابا اواسط القرن الحادي عشر بتوطيد مركزه في رومية والغرب بعث بنائبين من قبله يضعان

باحتفال في كنيسة القسطنطينية براءة الحرم الذي صدر من البابا على البطريرك واشياعه (سنة ١٠٥٤) فابت كنيسة الشرق ان تخضع وظل المسيحيون منذ ذلك العهد منقسمين الى كنيستين الكنيسة اللاتينية او الكاثوليكية التي خضعت للبابا والكنيسة الرومية او الارثوذكسية التي اعترفت ببطريرك القسطنطينية وليس الروم فقط هم اتباع هذه الكنيسة بل الروس والبلغار والصرب والرومانيون

الالحاد — كان الملاحدة (الهراطقة) الذين متفرقين في القرون الاولى والوسطى فنماوا في القرن الثاني عشر يتكاثرون ولاسيا في جنوبي فرنسا وشمالي ايطاليا وانقسموا الى شيع مختلفة كثيراً يصعب علينا تمييزها ولا نعرفها الا بما نقله عنها اعداؤها فبعضهم من اتبعوا من ملاحدة بلغاريا مذهب المانوي الفارسي القديم في تنازع الخير والشر وآخرون وهم الكثاريون (الاطهار) وفقراء ليون الفودويون كان الملاحدة يمقتون فساد رجال الكهنوت في عصرهم وزعيم شيعة الفودويين بطرس تاجر غني من اغنياء ليون كان ترجم له الكتاب المقدس باللغة العامية فاعجب عملاً بحكمة الانجيل ان يوزع جميع ما يملك على الفقراء واخذ يدعو الى الدين بل رغم منع الاسقف عليه ذلك وكان انصاره يرفضون كل ما لا يرونه مسطوراً عندهم في التوراة مثل الصور والماء المقدس والقديسين والمذابح والمطهر والصوم والقربانات وكانوا يقولون ان الكنيسة الرومانية ليست كنيسة المسيح بل كنيسة الشيطان وما الاحبار الا فريسيون يجب ان لا يملكوا شيئاً من حطام الدنيا بل ان يعملوا كما عمل الحواريون وان لا يتقيدوا اذ ليس في الكنيسة الحقيقية الا اهل التساوي فالعامة ليسوا دون الخاصة ولهم الحق ان يبشروا كما كان يبشر الرسل والعامي التقي هو اشد مراقة في الرهبنة ويجب ان لا يتناول القربان من رجال الكهنوت الخاطئين اما كن القسيسين والكنيسة فسر القربان المقدس والقربانات لا فائدة فيه لان الايمان والتوبة يكفيان في الخلاص. وكانت قوة هؤلاء الملاحدة باختلاطهم مع الشعب مباشرة يكلمونه بلسانه ويعيش ويلاطم عيش الفقر والشدة المخالفة لاخلاق احد رجال الدين الاغنياء الفاسدين احياناً ولكن معظم المسيحيين كانوا يفزعون من اسم الحاد وطفقوا عن رضى يجاهدون رجال الكهنوت ليقضوا على الملاحدة ودعا البابا فرسان فرنسا الشمالية واقام عليهم حرباً صليبية كما اعلنوها على المسلمين فذبحوا جميع سكان بزيه على نحو ما فعل الصليبيون في الشرق من ذبح الرجال والنساء في اورشليم. وقد حرم البابا الامبراطور فردريك الثاني في المانيا وهو نصف عربي

بشدته فاحرق كل من اشتبه فيهم انهم ملحدون.

ديوان التفتيش الديني — بعث البابا الى مدن اقليم لانكدوك بمفتشين عهد اليهم البحث عمن يشتبه بهم بالالحاد وذلك ليستأصل الملاحدة عن بكرة ابيهم ومنحهم كل سلطة في القاء القبض على كل شخص ومحاكمته والحكم عليه واطلق لهم الحرية ان يعملوا بما يرونه مناسباً مبيحاً لهم ان يغفر بعضهم لبعض اذا بدرت منهم بادرة وهؤلاء المفتشون (وفي العادة ان يكونوا قسوساً) يستقدمون الرجال الذين يرمون بالزندقة ويسألونهم بدون ان يقولوا لهم اسماء من اظهر امرهم فاذا ابى المشتبه به الكلام يسجنونه ويضيقون الخناق عليه ولقد قال احد هؤلاء المفتشين ولطالما رأيت اناساً حبسوا على تلك الصورة سنين كثيرة فانتهى بهم الحال ان اقروا ايضاً باجرامهم قديمة وحادثة ايضاً لحملهم عَلَى الاقرار يستعملون معهم طريقة التعذيب التي تركت منذ عهد الرومان واخذت بالاستعمال عند ظهورهم وكانت محكمة التفتيش تحكم بطريقة عرفية بدون استئناف تحكم عَلَى بعضهم بغرامات فاحشة او بحج بعيد وعَلَى غيرهم ان يحملوا عَلَى ثيابهم صلباناً صفراء تخاط عليها فتشعر بانهم مشتبه بامرهم امام القوم وتقضي على الآخرين ان يطوفوا تائبين يحملون العصي للجلد وغيرهم يسجنون مؤبداً في مطبق صغير مظلم على خبز الكرب وماء العذاب وبعضهم يحرقون في وقود الحطب وديوان التفتيش لاينفذ الحكم عليهم بنفسه بل يكتفي بان يدفعهم الى القاضي المدني العامي وهو يسلمهم الى الجلاد.

الرهبان الشحاذون — اصبحت الرهبنات الدينية التي حلت في القرن الحادي عشر على الفساد لتحوز غنية غنى فاحشاً فكان رئيس دير كلوني يسيح في موكب مؤلف من ثمانين فارساً والرهبان البيض الذين أرسلوا لتنصير الملاحدة قد حملوهم على العصيان بما رأوه من بذخهم ولذا دعت الحال الى وضع نظام جديد وذلك بما قام به القديس فرنسوا الايطالي والقديس دومينيك الاسبانيولي.

فكان القديس فرنسوا (ولد سنة ١١٨٢) ابن تاجر غني في آسيز تخلى عن المال وراح الى المدن يتوكف الاكف ويدعو الناس. فظنه القوم مختل الشعور ولعنه ابوه ولكن لين جانبه ولطفه وحماسته لم تلبث ان عقدت القلوب على حبه فاعجبت به وجاءه من تلقوا دعوته زرافات فعزم ان يضم شتاتهم وانشأ رهبنة الاخوان القاصرين (الفرنسيسكان) وكان القديس فرنسوا يعيش عيش التنسك يسهر ويصلي ويصوم

ويلبس مسحاً ويمزج رماداً في طعامه لئلا يلذه طعمه ويجلد نفسه كل ليلة بسلاسل من الحديد (ثلاث مرات واحدة عن نفسه والاخرى عن ارباب الخطايا الاحياء والثالثة عن ارواح المطهر) ومات منبطحاً على الارض بلا وسادة وكان خلافاً للحبساء مخفوض الجناح راغباً في خلاص غيره يريد ان يكون من جماعته الفرنسيسكان نساك ابناء فقراء ولكن نساك يعظون بين اظهر الناس ويرشدونهم في القرى قال لتلامذته : اذهبوا اثنين اثنين مبشرين الناس بالسلام والتوبة للعفو عن خطيئاتهم . لا تخافوا شيئاً لانكم تبدون للناس كالاطفال والمعتوهين ولكن بشروا فقط بالانابة والتجدد وكونوا على ثقة من روح الله الذي هو الدائم ينطق بالسنتكم . وكانت قاعدته بسيطة للغاية وهو ان لا يملك الاخوان شيئاً بل ان يعيشوا سائحين ابداً كالحجاج والغرباء يعبدون الله بالفقر والضراعة اليه والصدقات قصارى ما يقتاتون به ولا يخجلون من ذلك لان السيد المسيح سن لنا سنة الفقر . ولبس الفرنسيسكان لباس الفلاحين وهو عبارة عن ثوب من الصوف الغليظ له قبعة ومن هذا اشتق اسمهم (الكبوشيون) ويلبسون في ارجلهم نعالاً ويتمنطقون بحبل (ومن هنا سموا ايضاً الحباليين) ولا يعيشون الا من الصدقات

وكان القديس دومينيك (ولد سنة ١١٧٠) من النساك ايضاً لا يشرب الخمر ويلبس مسحاً مع سلسلة حديد ومات منطرحاً على الرماد وكان واعظاً وعظ عشر سنين في البلاد الالبية هداية الملاحدة وهناك رأى كيف يطمح الشعب لسماع كلام الله وهو يتألم لما يرى من بذخ رجال الكهنوت ومن سنة السير في القدم [illegible] ساذجة للغاية وأراد ان يكون له في هذا كله في الامة رسل مبشرون فانشأ جمعية الاخوان الواعظين جعل شأنهم ان يتكلموا في كل مكان بما فيه سلامة الارواح ووضع الفقر قاعدة لهم .

وهكذا كان الفرنسيسكان شحاذين فاصبحوا واعظين والدومينيكيون واعظين فاصبحوا شحاذين وكانت الرهبنتان تتشابهان من وجوه كثيرة [1] وكانتا كلتاهما منظمتين على

---

[1] اقترح القديس دومينيك ان يمزج الرهبنتين فأبى القديس فرنسوا يريد بذلك ان تكون كل رهبنة مثالاً للاخرى ومهمازاً يسوقها الى العمل فكانت الرهبنتان اولاً حليفتين ومتضامنتين ولم يجئ القرن الخامس عشر الا واخذت كل منهما تنكر الاخرى وانتهت الحال بتقاتلهما وتدابرهما

فقد يقودهما يطيع البابا مباشرة ولكن الدومينيكيين كانت علاقتهم بالسادة والملوك أكثر والفرنسيسكان بجمهور الشعب وامتدت كلمة هاتين الجمعيتين امتداداً لا يكاد يصدق فلم تدخل سنة ١٢٧٧ الا وكان للدومينيكيين ٤١٧ ديراً وكان للفرنسيسكان سنة ١٢٦٠ — ١٨٠٨ أديار وفي كل دير اثنا عشر راهباً على الاقل واذ كان اعتمادهم على الله الذي كان مربيهم وخوانتهم كانوا يقبلون في جملتهم من الاخوان كل من جاءهم فمن يقصدونهم يعطونهم ثوباً وحبلاً وما عدا ذلك فيكلون أمره لعناية الالهية. ولقد عاش قدماء الرهبان خارجين عن العالم اما الرهبان الشحاذون فاختلطوا بالمجتمع وأذن لهم البابا ان يبشروا ويعرفوا ويدفنوا فأخذ المؤمنون يهرعون اليهم تاركين قسوسهم المعتادين وكان بذلك ثورة عظيمة وطدت سلطة البابا كل التوطيد

عدل الكنيسة — كان في كل ابرشية منذ القرن الثالث عشر محكمة الكنيسة يجلس فيها مندوب الاسقف يحكم وينظر فيها في عامة القضايا التي لها مساس باحد الاكليريكيين اذ لم يكن يقبل ان عامياً يرفع يده على رجل من رجال الله فالاكليريكي اذا ارتكب جرماً لا يحكم عليه الا مثله وهذا من جملة امتيازات رجال الدين امتيازات يرغب فيها لان قضاة الكنيسة لا يحكمون بالاعدام بتاتاً وكثيراً ما كان احد الاشقياء فراراً بنفسه من المشنقة يدخل في درجة من درجات الاكليروس ويتعلم صلاة باللاتينية ويظاهر بمظهر ديني وقد امتدت سلطة المحاكم الكنائسية على العامة. فالكنيسة التي تدير اسرار القربان المقدس يجب ان تبت في كل المسائل التي لها علاقة بهذا الشأن ومثل هذه المسائل ليست بقليلة. فقد اصبح الزواج منذ ظهور الدين المسيحي سراً من اسرار القربان فيأتي الزوجان في شهودهما يقفان تحت دهليز الكنيسة فيسألهما الكاهن فيما اذا كانا يقبلان بالزواج فيقول الزوج انا فلان ارضاك زوجة وتقول العروس انا فلانة ارتضيتك بعلاً ويأتي اهل المرأة يضعون يدها في يد زوجها ويبارك القسيس خاتم الزواج اشارة العقد ثم يدخلون كلهم الكنيسة (١) فيتلو القس القداس على الزوجين الراكعين المستورين بستار خاص وهذه الحفلة جعلت الزواج في يد الكنيسة وكانت تكفي في عهد الرومان ارادة الزوجين لعقد القران كما تكفي ارادتهما لفسخه اما المسيحيون فعلى العكس لا يستطيعون الزواج الا اذا سمحت

---

(١) من عادة الافرنج ان يطيلوا في وصف كل ماله علاقة بهم ولكن سنيوبوس اطال في الشؤون الدينية الخاصة بقومه حتى خرج عن موضوع الحضارة جملة (المعرب)

الكنيسة ولكن [illegible] حتى بين الاهل المؤمنين [illegible] ولكن [illegible] طول العمر لان من تزوج لا يحق [illegible] الطلاق [illegible] الكنيسة الاولى [illegible] ولا [illegible] الزواج مطلقاً .

والكنيسة [illegible] في اوربا لان الرجل [illegible] ان يوصي الا بعد الاعتراف والاعتراف سر من الاسرار [illegible] الكنيسة ان [illegible] ولم يوص [illegible] وصية [illegible] الكنيسة وارجع جميع القضايا في الوصايا الى محاكم الكنيسة . والكنيسة [illegible] في [illegible] امثال [illegible] لان الكنيسة تحصر [illegible] من [illegible] الكنيسة [illegible] في جميع [illegible] وكانت محاكم الكنيسة الى القرن السادس عشر اكثر [illegible] من المحاكم [illegible]

البابوية

البابوية — البابوات في القرن العاشر [illegible] السلطة [illegible] تحت سلطة العامة من [illegible] في رومية [illegible] بعضهم بعضاً من [illegible] في [illegible] . [illegible] الكرسي [illegible] لاسرة من [illegible] تودورا [illegible] في [illegible] عشرة من [illegible] البابوية من [illegible] الامبراطور هنري [illegible] حداً لهذه [illegible] وذلك ان اخذ الى نفسه تعيين البابوات [illegible] الاصلاح [illegible] في مناصب الكنيسة [illegible] رجل من [illegible] الذي [illegible] الامبراطور [illegible] روميه [illegible] من [illegible] رجال [illegible] رومية [illegible] سنة ١٠٦٠ [illegible] البابوات [illegible] ان [illegible] الامبراطور [illegible] وهكذا [illegible] في [illegible] البابوية استقلالاً عن شعب رومية والملوك الاجانب . [illegible] الكنيسة من [illegible] زواج الرهبان وبيع [illegible] رومية العليا [illegible]

[illegible] — [illegible] في الكنيسة ان ينتخب الاسقف

بمعرفة الكهنة القانونيين ورئيس الدير بمعرفة رهبانه واذ كان لكل ابرشية ولكل دير املاك واسعة اعطاها له الملك على سبيل الاقطاع وكان الملك ولا سيما في المانيا يطالب بحق تعيين من يستمتعون بهذه الاقطاعات فاذامات أسقف او رئيس دير يحمل الكهنة القانونيون او القساوسة الى الملك علامات المنصب الأسقفي او الرئيس وهي العكاز رمز السلطة والخاتم رمز اتحاد الحبر مع الكنيسة فيختار الملك من يريده وفي العادة انه يختار احد رجال الكنيسة في قصره و يجعله يمين التابعية له و يوليه اسمه يملكه زمام منصبه بان يدفع اليه العكاز والخاتم . وهذه العادة قد ثار لها المصلحون في الكنيسة . قال البابا اوربانوس الثاني أمن الممكن ان تكون الايدي التي تشرفت بالشرف العالي في ايجاد الخالق (كذا) بحيث يؤول امرها الى العار بالخضوع الى ايد ملوثة بالسلب والدم . وما معنى قبول منصب كنائسي من عامي الا الاتجار بالاشياء المقدسة و بذلك ارتكاب الخطيئة المميتة في بيع هذه المقدسات فطالب البابا من ثم ان يتخلى الامبراطور عن انتخاب الاساقفة ورؤساء الاديار ليكون انتخابهم بحسب القواعد القانونية . وكان الامبراطور يجيب على هذا المقترح بان الابرشيات والاديار جزء من الاملاك الامبراطورية وللامبراطور وحده الحق في ان يوليها من اراد . وعلى هذا الوجه ثار بين الامبراطور والبابا خصام على التولية . وانصار البابا في مطاليه القسيسون وانصار الاصلاح وانصار الامبراطور الاساقفة ورؤساء الاديار في المانيا ولومبارديا اتباعه والقساوسة المتزوجون وهذه احضر أسقف كوار سنة ١٠٧٥ ليبلغ رئيس اساقفة مايانس الامر البابوي في حظر الزواج على القسيسين قام جميع الاكليروس الذين كانوا حاضرين المجلس مغاضبين شاتمين رئيس الاساقفة ومانعيه من قبول هذا الامر . ودام الاخذ والرد في ذلك نصف قرن (١٠٧٥—١١٢٢) وتعذر التوفيق فيه بسبب حقوق مداخيل الكنيسة او سلطة الاساقفة السياسية وقد حل البابا باسكال الاشكال بان قرر تنازل الاساقفة عن المدن والكونتيات والنقود والمكوس والقصور والاملاك والحقوق التي يعطيها الامبراطور لهم . فلم يرض رجال الاكليروس عن هذا النظام ولما عقد الصلح سنة ١١٢٢ احتفظ الاساقفة بحقوق مداخيلهم وسلطتهم السياسية فسمح الامبراطور بانتخاب الاساقفة ورؤساء الاديار من قبل الكهنة القانونيين او القسوس وان يعطوهم العكاز والخاتم ولكنه ابقى حق توليتهم بالعلم كالامراء من العامة .

مناوشات البابا مع الامبراطور — كان البابا والامبراطور متفقين على ان يحكموا

مشتركين كما وقع في عهد شارلمان فلم يكن من حاجة لتمييز سلطة احدهما عن الآخر وتحديد حقوق كل منهما وكان يقال ان الله اعطى سيفين سيف السلطة الزمنية للامبراطور وسيف السلطة الروحية للبابا يحكمان العالم معاً ولكن عندما اشتدت حدة الخلاف بين البابا والامبراطور اقتضى ان يتساءل الناس ما هي حقوق السلطة الروحية والسلطة الزمنية وعند اي حد تقف . وهي مسألة صعبة لم يتيسر للعصور المقبلة ان تحل عويصها ولا تزال تتناقش فيها بعد تحت اسم علاقات الكنيسة بالحكومة

ولقد كان الناس في القرون الوسطى يتساءلون أي سلطتين متساويتين مستقلتين وهل البابا او الامبراطور هو الذي يحكم على الآخر وكل منهما يزعم ان سلطته الهية سامية فكان الامبراطور وارث القياصرة والملقب بالقابهم يطالب بحق الزعامة على العالم اجمع والبابا يقول ان الله اعطى الى القديس بطرس الحق المطلق ان يحل و يربط في السماء وعلى الارض لم يستثن احداً بل اخضع اليه الامراء وجميع دول العالم وولاة امرها في ممالك الدنيا . والبابا اسمى مقاماً من جميع الامراء وهو فاصلهم وفي وسعه اذا رآهم غير لائقين للحكم ان يخرجهم وان يعزلهم وان يحل رعاياهم في حل من اخلاص اليمين لهم . وقد نفذ غريغوريوس السابع هذه الحكمة بعزل هنري الرابع . فطال الخصام بين السلطتين مدة في القرن الثاني عشر في الدولة ودام ينازع حقوق الامبراطور على مدن لومبارديا الى سنة ١٢٥٠ فغلب الامبراطور لان سلطته على العالم وهمية ولم تكن له سلطة الا في المانيا وايطاليا ثم انه عاجز عن ان يبذل له الطاعة امراء الالمان ومدن الطليان

نفوذ البابا — اصبح البابا في القرن الثالث عشر وعنده رجال الكهنوت الذي قوي بالاصلاح والتهذيب زعيم العالم المسيحي بلا منازع فهو بصفته نائب المسيح يحكم على رجال الاكليروس كافة وهؤلاء يحكمون على جمهور المؤمنين ويحفظ لنفسه الحق ان يجمع المجامع ويعزل الاساقفة ويقرر لكبار المرسلين ويعطي ما يلزم من النفقات يتناول القربان على عرش عال ويقبل جماعة رجليه ولرسائله قوة الشريعة في الكنيسة كلها واليك كيف تحدد سلطته قال اينوسان الثالث لقد وضع الخالق في سماء الكنيسة منصبين اعظمهما البابوية وهي تحكم في الارواح كما تحكم الشمس على النهار واقلهما الملك وهو على الاجسام كالقمر في الليل فالبابوية تفضل على الملك كما تفضل الشمس القمر . وقد عهد سبحانه وتعالى الى القديس بطرس ان يحكم لا الكنيسة العامة فقط بل العالم فكان جميع

عقوبات السماء والارض والتطهير التي رتبتها البابوية هكذا كتبوا يجب ان نخضع [illegible] حتى لا يكون في الارض سوى قطيع واحد وراع واحد .

وقد كتب [illegible] الثالث سنة ١٢٠٦ الى ملك فرنسا يقول الاسم [illegible] كلام اب [illegible] [illegible] وملك بعد ذلك غير خاضع لزعيم رجال الدين . وكتب [illegible] سنة ١٣٠٢ في المنشور المشهور ان الكنيسة واحدة في جسم واحد ليس له الا رأس واحد لا رأسان كالمسخ وهذا الرأس هو خليفة القديس بطرس فلا لاجل ان في الكنيسة سيفين روحي وزمني تستعمل الكنيسة ويد البابا احدهما والثاني للكنيسة ويد الملوك بامر البابا

مضت القرون الاولى وليس في الكنيسة سوى قوانين اي قواعد وضعتها المجامع وعندما عرف البابا [illegible] على جميع رجال الاكليروس اصبحت اوامره قوانين الكنيسة على نحو ما كانت في القديم اوامر الامبراطور الروماني شرائع للمملكة وقد جمع كراتيان الراهب الايطالي في القرن الثاني عشر الاوامر التي [illegible] القدماء الباباوات والف منها كتابا سماه المذكرة [illegible] قرارات الباباوات في القرن الثالث عشر فعلته مجاميع جديدة مؤلفة من رسائل الباباوات التي كتبت بعد جمع الرسائل الاولى وهكذا فكما ان يوستينيانوس الف مادة الشريعة المدنية الف الباباوات مادة الشريعة القانونية التي ظلت قائمة للكنيسة

المدنية الشرقية في الغرب

تقدم شعوب الشرق في القرون الوسطى — يكاد القارئ يجهل المدنيتين اللتين كانتا في القرن الحادي عشر [illegible] العالم [illegible] في الغرب مدن حقيرة صغرى واكواخ من الخشب والآجر لا هندسة لها وبلاد مستورة بالغابات والحروب لا يتأتى ان يسير فيها اكثر من عشرة الى [illegible] في الشرق مدن قسطنطينية والقاهرة ودمشق وبغداد وغيرها مدن [illegible] من قصور الرخام والمعامل والمدارس والاسواق والحدائق [illegible] في [illegible] دورة [illegible] والقيام وحركة التجار التي لا تنقطع [illegible] من اسبانيا الى فارس ولا شك ان العالم الاسلامي والعالم البيزنطي كانا اعلى [illegible] من عالم الغرب في شكل [illegible] [illegible] ان يجب [illegible] الغرب [illegible] الغربي والشرقي في القرن

الحادي عشر [illegible] الشعوب [illegible] الى [illegible] متمدنين من طريقين الحرب والتجارة .

الحروب الصليبية — انتهى السلجوقيون من [illegible] القدس فشرع النصارى بجهادهم وكانت تلك الحروب الصليبية . وقد دعا الى الحرب الصليبية الاولى اوربانوس الثاني في كليرمون وكان فرنسياً . وكان يقصد من هذه الحروب انقاذ البيت المقدس (اي قبر المسيح) من ايدي [illegible] فكان [illegible] يحملون [illegible] صليباً او صليب [illegible] . ومن هنا اشتق اسم الصليبيين . وكان [illegible] البابا كل من يشترك بهذه الحملة ان يعفو عنه من كل الخطيئات التي [illegible] هؤلاء [illegible] من تجار [illegible] وعقدوا من ثبات الصليبيين [illegible] سورية [illegible] الاربع امارات (كانت تسمى الافرنج[1]) وفي سنة ١٢٠٤ [illegible] حملة الى القسطنطينية واقاموا امبراطورية [illegible] وقد [illegible] هذه الحرب [illegible] القرن الثاني عشر ودامت الى القرن الثالث عشر [illegible] حتى القرن الخامس عشر [illegible] وكانت آخر حملة من حملات الصليبيين في اسبانيا سنة ١٤٩٢ انتهت بأخذ غرناطة .

صفة الحروب الصليبية — كانت الحروب الصليبية حملات مؤلفة من المتطوعين [illegible] البابا [illegible] العام فكان كل صليبي [illegible] هو الكنيسة من جميع [illegible] التي [illegible] فيها فكان الصليبيون يجتمعون جماعات حول السادات القادرين [illegible] ولكن [illegible] ان ينتقلوا من جيش الى آخر او ان يتركوا الحملة [illegible] قد تم . والجيش الصليبي لم يكن سوى اجتماع عصابات تسير الى مقصد واحد من طريق واحد فكانوا يسيرون مشوشاً نظامهم [illegible] لا [illegible] يحملون [illegible] ما [illegible] فكانوا [illegible] اجتياز الامبراطورية [illegible] وقتل فرسان الاتراك في آسيا الصغرى [illegible] الرجال والخيول [illegible] في القفار التي [illegible] وكانت الاوبئة التي تحدث في المعسكرات [illegible] من [illegible] بعد

---

[1] [illegible] العرب [illegible] الافرنج [illegible] الى القرن التاسع [illegible] المملكة الفرنك

الإفراط في الطعام والشراب تخمد أرواحهم بالألوف . وكان من يطلبون سورية قليلاً عددهم ففني الرجال وي فناء في القرن الثاني عشر على هذه الصورة على طريق الأرض المقدسة فضاق صدر الصليبيين من هذه الرحلات القتالة في البر واخذوا يعدلون عنها وفي القرن الثالث عشر قصدوا كلهم البلاد المقدسة من طريق البحر فكانت السفن الإيطالية تقلهم وتحولهم إلى الأرض المقدسة في بضعة أشهر حيث يجاهدون الجهاد الحقيقي

كان الفرسان في عالم الحس اذا تساوى عدد المقاتلين قد يكتب النصر لهم وذلك لانهم كانوا بجيوشهم الضخمة وسلاحهم الذي لا يأتي حرفه يؤلفون كتائب متراصة لا يستطيع فرسان العرب الراكبون على خيول خفيفة ان يخرقوها بسهامهم وسيوفهم . نعم ان حروبهم لم تسفر عن نتيجة فعاد الصليبيون الظافرون الى اوربا ورجع المسلمون . وهذه الجيوش المتقطعة كانت تستطيع فتح الارض المقدسة ولكنها لم تكن تستطيع حفظها بيد انه كان بالضرورة لأهل الصليب الذين اتوا البلاد بانفسهم من الخطايا رجال من الفرسان والتجار الذين قصدوا البلاد ليقيموا فيها فكانوا يعنون بحفظ البلاد ولولا هؤلاء لما كتب التوفيق ابدا في الحروب الصليبية ولتخاذلهم القوة المؤقتة التي كان يؤلفها سواد الصليبيين . فكانوا يديرون الاعمال الحربية وينشئون ادوات الحصار ويأخذون المدن يحصنون فيها بحيث يقاومون عودة العدو . ولو ترك اولئك الصليبيون وانفسهم لما استطاعوا ان يحتفظوا في تلك البلاد القاصية بتلك الحملات ذات الأبهة التي كان الملوك قوادها (مثل لويس الثاني عشر وكوراد وفريدريك بربروس وفيليب المعطس وملك المجر وسان لوي) فقد اخفقت كلها اخفاقاً ذليلاً . والحروب الصليبية الوحيدة التي نجحت حقيقة (الاولى التي فتحت سورية والرابعة التي فتحت امبراطورية الروم) وكان قواد الاولى النورمانديون من ايطاليا والاخرى البنادقة . وكانت حماسة الصليبيين وشجاعتهم قوة عمياء لا ينتفع بها الا اذا كان المديرون لها اناساً من اهل الحرب . وما كان الصليبيون سوى مغامرين والمؤسسون الحقيقيون لممالك المسيحية هم المتشردون والتجار ممن كانوا يشبهون المهاجرين المحدثين الذين كانوا يسافرون لاستيطان الشرق . وما كان هؤلاء المهاجرون قط من الكثرة بحيث تأهل بهم البلاد التي نزلوها متخذين لهم معسكرات بين اهلها الوطنيين ولم تكن الامارات الافرنجية سوى عبارة عن حكم أشراف يقوم به بضعة الوف من الفرسان الفرنسويين والتجار الايطاليين فليس لها من تماسك الاجزاء ما كان

لممالك العرب التي تستند على الامراء والشعوب . فاشبهت هذه الامارات الممالك التي أسسها زعماء الغار بين العرب او الاتراك حيث تندمج الحكومة بالجيش وتهلك وإياه . وطال عمر هذه الامارات قرنين وهي حياة تعد طويلة في الممالك الشرقية ولو تيسرت هجرة قوية لما توحدت آسيا إزاء آسيا الاسلامية والبيزنطية ولكن اوربا في القرون الوسطى لم تستطع ان تقوم بهذه المهاجرات

مضى نصف قرن ولم يشتغلوا بغير حرب صغار الامراء في سورية وكان سلطان مصر يخشى من هجومهم بسلام . وهذا زمن نجاحهم ولما أتى صلاح الدين على الخلافة بمصر فقرضها وأقام بدلاً منها حكومة عسكرية في القاهرة هوجم الصليبيون من جهة مصر فلم يستطيعوا ان يقاوموا زمناً طويلاً (كما دلت على ذلك انتصارات صلاح الدين) فاذا كانوا احتفظوا بممالكهم قرناً آخر فذلك لان السلاطين لم يجرءوا ان يهددوهم . لاجرم ان هذه الحروب كانت في نظر المسلمين كما هي في نظر المسيحيين جهاداً مقدساً ولكنها انقطعت بهادنات بضع سنين ولا ينبغي لنا ان نتصور جميع أمراء المسيحيين متحدين على أمراء المسلمين بل كانت المصالح السياسية أشد قوة من العواطف الدينية وما برح أمراء النصارى يتقاتلون بعضهم مع بعض كأمراء المسلمين يقتل بعضهم بعضاً وقد حدث ان اميراً مسيحياً تحالف مع امير مسلم على امير مسيحي . وما قط كان الاتفاق تاماً في جيش النصارى للحماسة التي كانت تجمعهم لم تأت على منافساتهم في التجارة ولا على تباغضهم الجنسي وكان النزاع دائماً بين الامراء من مختلف الاجناس الفرنسيس والالمان والانكليز بين تجار جنوة وتجار البندقية بين الداوية والاسبتالية (فرسان الهيكليين والمقربين) وكثيراً ما تقاتلوا . ومثل ذلك من الخلاف بين الصليبيين القادمين من اوربا والافرنج الذين في سورية . ولقد اتخذ الافرنج عادات الشرقيين لما عاشوا بين ظهرانيهم فاستعملوا الحمامات والاقمشة المسترسلة وتقلدوا عادة المسلمين على الطريقة الاسلامية وانشأوا يعاملون المسلمين معاملة المجاورين ولا يحاربونهم بدون داع . واراد فرسان الغرب القادمين وقد ملئت صدورهم غيظاً على المسلمين ان يبيدوا كل شيء وقد حنقوا من هذا التسامح فكانوا اذا خرجوا من البحر ينقضون على الارض الاسلامية ويهرعون للقتال والنهب وكثيراً ما كانوا لا يستمعون لما ينصح لهم به مسيحيو البلاد الواسع اختبارهم في الحرب في الشرق اكثر منهم . ولقد وصف مؤرخو العرب نصارى الارض المقدسة بالنذالة والخديعة والفساد ونسبوا اليهم خراب ممالك سورية . وليت شعري ماذا يكون

من الصدق في هذه التهم ؟ لا عجب ان هؤلاء المشردين من الاقربين اذا عادوا الى المسرح وحده واطلقوا يبثون في الصحف احتكاكهم بشعوب فاسدين اسرت اليهم مفاسد كثيرة ولا سيما من قضى منهم في اوربة وكانوا بدءوا بهم الهوى ولكن الصحفيين لنكن لم من [illegible] ما يجوز صدور مثل هذه الاحكام فانهم القسم الاعظم وقد اخذ قوامي الشباب اكثر مما اخذت نصارى سورية بقومهم

ياشرق

لا الصبر ينفعه ولا الجزع   قلب يكاد شجاه ينصدع
يا ليل هذا ساهر قلق   يرعى النجوم وقومه هجع
هل بات ذو شجن يشاركني   اشكو له ما لي فيستمع
مرت الهموم فشمت ادمعا   واذا الهموم [illegible] المدمع
حتى يصفو [illegible]   [illegible] ضاق منها الي [illegible]
من بات تدمع عينه اسفاً   [illegible] فؤاد [illegible] بات يدمع
شفقت من دهري الى املي   واليوم القى كيف ينقطع
ولي شيء هو يخدعني   [illegible] حبيبه والصدع

. . .

يا شرق بارت العداة هوى   يا شرق أغراهم بك الطمع
وبنوك قد باتوا كل طرائق   [illegible] سواء الناس قد طبعوا
[illegible] بينهم وطن   [illegible] فيه [illegible]
يفترقون الى مذاهبهم   وإلى الاخاء الناس تجتمع
صبوا الى [illegible] تعصبهم   والله لو عقلوا لما خضعوا
الشرق [illegible] صواده   لو [illegible] الافلاك تنصدع
داريتهم زمناً أداويهم   [illegible] السهام الي وينتزع
عاتبتهم بالامس اذ جفوا   واليوم ارثيهم وقد وقعوا
هديتهم ودي فما قبلوا   اطلعتهم نصحي فما اتبعوا